

## العائلة القروية المغربية (مواقف من التقليد والحداثة)

تقديم مشترك : العائلة القروية والتغير الاجتماعي

1 — الإشكالية وأهميتها بالنسبة لقضية التراث ودوره في تشييد المستقبل :

في الوقت الذي تكتسح فيه قضية التراث، ودوره في بناء المجتمع الجديد، ساحة المفكرين بمفاهيم المثقفين والمخططين يصبح من الضروري القيام بمبادرات ولو متواضعة، للتعرف على موقف الفئات المحكوم عليها بالصمت إلى حد الآن، والتي لا تشارك بإعطاء آرائها في تشييد المجتمع الجديد. ألا وهي الفئات القروية بمن فيها من الرجال والنساء والمراهقين من الخسنين. ما هو موقف العائلة القروية من قضية التقليد والحداثة ؟ هل تُجسد مسألة التغير أمراً ملحاً ومركزياً في حياة العائلة الفلاحية أم أن هذه المسألة تعاش كقضية هامشية وثانوية ؟ هل العائلة الفلاحية متشبثة بالتقاليد وتسمى من أجل ترسيخها وإثباتها وتوارثها من جيل الآباء إلى الأبناء أم أنها بالعكس تسعى إلى تمزيق هذه التقاليد والتخلص منها ؟. ومن خلال بحث ميداني مبني على تقنية « دراسة الحالة » — ولا يطعن في الطابع العلمي لهذه التقنية إلا جاهل بتقدم المناهج العلمية وتطورها — يظهر أن للعائلة القروية التي يدور حولها البحث موقفاً واضحاً وصارماً إزاء التغير : إنه يجسد لديها محور المشاكل التي تعيشها يومياً، وتسمى إلى هذا التغير الذي يشكل الحل الوحيد للمشاكل التي تنخبط فيها، وهي ترى بأن هذا التغير يرتكز على دعمتين هما :

— تبني التكنولوجيا تبنياً موازياً لحاجياتها

— تدخل دولة يهدف أن تضمن سياستها الحق في التعليم وفي ثروات البلاد لكل مواطن ومواطنة. وقد أظهر البحث بالتالي أن للعائلة القروية موقفاً معادياً للتقاليد التي يجسدها أسلوب عيشها الحالي، المتمثل في حرمانها من التكنولوجيا وفوائدها، فيما يخص التجهيز السكني (الماء الملوث، الطرق الغير المعبدة، انعدام الكهرباء... الخ) والتغطية الصحية (بعد الوحدات الصحية وتقلص دورها) والهياكل التعليمية (إجهاض دور المدرسة وعمقها فيما يخص تكوين أجيال قروية، تلعب دوراً في تقرير مصير الجماعات القروية).

ونظراً لأهمية خلاصات هذا البحث بالنسبة لكل من يدرس قضية التراث والتغيير، قررنا أن نقدم فيما يلي موجزاً لأهم نقاطه بما فيها دور البحث العلمي وقبوده السياسية والإيديولوجية في تشييد مجتمع جديد مبني على تعدد الخطابات، لا توحيدها العشوائي الذي يجسد في حد ذاته السيورة السلطوية المعادية لروح الديمقراطية.

سنبدأ أولاً بتقديم إطار البحث ومن خلاله إبراز قيود البحث العلمي الذي يتطلب مصاريف نفوق المجهود الفردي وتجعل من كل مُمَوَّلٍ للبحث عنصراً حاسماً في تحديد مناهج البحث وتقديم النتائج. فمن خلال الاختلافات التي قامت بينها كباحثات محلّيات ومنظمة اليونسكو التي موّلت البحث، نريد الإشارة إلى بعض الخلفيات الإيديولوجية لهذا الأخير :

1 — هناك دائماً تناقض بنيوي بين مُمَوَّلِ البحث والباحث. ولو عوضنا اليونسكو كمُموَّلٍ بوزارة الفلاحة أو الصحة، لبقِيَ تناقضنا هذا قائماً، إلا أن نوعية القوى المتواجدة تختلف إذا كان الممول هيئة دولية أو محلية. فكون البحث مُموَّلاً من طرف هيئة محلية لا يقلص في شيء من طابعه الطبقي ومن التناقضات بين ممول البحث والمبحث. ولو قمنا ببحث مماثل ممول من طرف وزارة ماء، لكان الصراع بيننا وبين هذه الوزارة، مشابهاً للصراع الذي عشناه مع منظمة اليونسكو، ولاسيما فيما يخص تفضيل التقنيات الكمية (الاستارة)، المقابلات القصيرة) عن التقنيات الكيفية (المقابلة المعمقة).

2 — لهذا يجب على الباحث الذي يجد نفسه كمنتج فكري مندمج في ديناميكية طبقية، تفرضها طبيعة البحث العلمي في إطار رأسمالي توضيح موقعه، وتوضيح موقفه من الطرفين وتحديد دوره في سيورة البحث وتقديم النتائج واستثمارها. فمثلاً هناك فرق شاسع بين البحث الذي كتبناه، وهو يحتوي على 224 صفحة وبين 34 صفحة التي ظهرت منه في مطبوع اليونسكو، فلهذا قررنا تقديم نتائج هذا البحث للقارئ المغربي بالتركيز على أهم النتائج بالنسبة لنا، ألا وهي موقف الفلاح إزاء التقليد والحداثة.

## 2 — الخلفيات الإيديولوجية للبحث العلمي : الصراع حول المنهج وكيفية تحرير وتقديم النتائج

أجريت في سنة 1979 مقابلات مع سكان جماعتين قرويتين وذلك في إطار بحث مقارنة، قامت به اليونسكو في عدد من البلدان منها المغرب<sup>(1)</sup>. وكان هدف بحث اليونسكو ضيقاً جداً، حيث كان يسعى إلى فهم مواقف العائلة القروية إزاء مشكلة تزايد السكان، فرفضنا تقييد مبادرتنا بهذا الهدف وأقنعنا منظمي البحث أنه من الأجدى توسيع الاشكالية على الأقل فيما يخص المغرب لتشمل قضية أعم، وهي موقف العائلة القروية إزاء التغيير بصفة عامة، سواء أكان هذا التغيير اقتصادياً أو اجتماعياً.

كان هناك مشكل آخر حول تصورنا للبحث وتصور مجموعة اليونسكو، وذلك فيما يخص المنهج، ولا سيما تقنية البحث. كانت اليونسكو تحبذ استعمال الاستارة والمقابلة القصيرة (L'entretien) وكنا مقتنعين بأن أحسن التقنيات لإعطاء فرصة لمبحث أُمّي للتعبير عما

يجول في خاطره من أفكار وأحلام وطموحات، هي المقابلة المعمقة (L'interview en profondeur) التي تحوّل الباحث إلى مجرد آلة مُسجّلة، لأن البحث يهدف إلى الحصول على معلومات كيفية لا كمية تبيّن مواقف العائلة القروية إزاء التغيير وبالتالي لا يهدف إلى التمثيلية (la représentativité) أو التعميم (la généralisation). وقد حصل اتفاق بيننا وبين منظمة اليونسكو على استعمال المقابلة المعمقة كتقنية أساسية لجمع المعلومات. فقامت كل واحدة منا خلال خمسة أشهر، بثلاثين مقابلة معمقة، وعدد أكبر من المقابلات القصيرة مع سكان الدواوير المبحوثة من جهة (مقابلات فردية مع الأمهات والآباء والأبناء في سن المراهقة، تمت داخل المنازل، ثم مقابلات جماعية خارجية) ومن جهة أخرى مع العناصر التقنية (المعلم، الطبيب أو الممرض، والمهندس) والإدارة (القايد، الشيخ).

وبعد إجراء المقابلات مع هذه الفئات تبلورت لدينا حقيقة أدت إلى نقاش حاد بيننا وبين باحثي اليونسكو الذين كانوا يسهرون على تنسيق المعطيات بين طانزانيا ورواندا والبيرو والمغرب حتى تصبح قابلة للمقارنة. ذلك أنه توضح لنا أن خطاب الفلاح يختلف كل الاختلاف (إن لم يكن عكسه) عن خطاب التقنيين والإداريين، باستثناء المعلم. وكان النقاش مع مجموعة التنسيق حول نقطة تقديم المعلومات. كانت مجموعة اليونسكو تفضل أن تقدّم نتائج البحث حسب المواضيع (الصحة، التعليم، التجهيز المعماري الخ...) وذلك حتى يسهل عمل التنسيق بين الباحثين في مختلف البلدان. وكنا نحن نفضل تقديم نتائج البحث حسب الخطابات (خطاب الفلاح، خطاب تقني الصحة : الطبيب والممرض والمولدة، خطاب الإداريين : القايد والشيخ، خطاب تقني الفلاحة : عناصر وزارة الفلاحة وموظفيها)، لأن أهم النتائج التي وضّحها هذا البحث الكمي أثبتت أنه من الأخطاء الاستراتيجية مواجهة المجتمع القروي كمجتمع متجانس ومنسجم الوحدات، فحسب بحثنا المتواضع في مداه (وذلك لأنه مجرد دراسة حالة) ولكن العلمي في بنيانه ونتائجه (لأن الحالات المدروسة وحدات مغربية مغروسة في واقعنا القروي تعكس تياراته وصراعاته في خصوصيتها)، فإنه ليس هناك مجتمع قروي متجانس، بل هناك مجتمعات قروية متضاربة يسود علاقاتها التوتر الناتج عن ديناميكية طبقية حادة. ويتجسد هذا التقسيم في خطابات متناقضة ومتضاربة، فلكل وحدة تركيبيّة بالعالم القروي خطاب خاص بها يعكس نظرة وفلسفة خاصة، ولا سيما فيما يخص مسؤولية الأطراف المتواجدة في المشاكل التي يتخبط فيها هذا المجتمع. بالنسبة لخطاب التقنيين المسؤولين عن السياسة «التنموية» الفلاحية والصحية، فإن مسؤولية فشل هذه السياسة ترجع إلى الفلاح وعدم انفتاحه على التغيير وسلوكه التقليدي المتجمد الخ... أما في خطاب الفلاح فإن المسؤول عن فشل المشاريع التنموية هي الهيئات التقنية التي تتجاهل حسب الفلاح آماله وطموحاته وتجربته وآراءه. وتوضح لنا منهجيا أن أهم النتائج هو هذا التضارب الحاد بين خطابات العناصر المركبة للمجتمع القروي، وأن كل محاولة لدمج خطاب الفلاح بخطاب التقني أو الإداري (إذا تناولناه حسب المواضيع كما ارتأت اليونسكو) تشكل مسا بالنتائج وتحريفًا للواقع كما عكسه البحث. فحصل الاتفاق على أننا سنقدم نتائج البحث حسب الخطابات، وأن على اللجنة المنسقة للبحث في هيئة اليونسكو أن تقوم بعماد إعادة

كتابة النص المغربي حتى يصبح قابلاً للمقارنة مع نصوص الباحثين في الدول الثلاث الأخرى المشار إليها. لهذا قررنا أن نقدم للقارئ المغربي أهم خلاصات هذا البحث بالتركيز على خطاب نادراً ما نصت إليه، ألا وهو خطاب العائلة القروية بمن فيها من الرجال والنساء والمراهقين.

خلاصة عامة للبحث : محتوى مفهوم التغيير لدى العائلة الفلاحية : القطيعة كمرحلة ضرورية.

الخلاصة العامة للبحث هي أن الفلاح يرفض أسلوب عيشه التقليدي، ويرغب في تغيير جذري في علاقته مع محيطه المادي والاجتماعي. إن القطيعة (La rupture) في رأي العائلة الفلاحية أياً كان جنس عناصرها وأياً كانت أجيالها، مرحلة ضرورية لضمان عيش أحسن بالنسبة للجميع. فالتقاليد التي تتحكم في علاقتهم بالبيئة الطبيعية والاجتماعية أصبحت سلبية في نظرهم، ولا تضمن لهم حق التفاؤل بالمستقبل. بالنسبة للفلاح وللفلاحة فإن حل المشاكل يتمحور حول ركيزتين : استيعاب التكنولوجيا وتدخل الدولة، ولكل من هذين المفهومين معاني محددة لديهم تتجلى في مؤشرات مضبوطة. مفهوم العائلة الفلاحية للتكنولوجيا مفهوم خاص يتناقى كل التنافي مع مفهوم التقنين، فبينما تتجاهل بمجهودات السياسة التنموية التجهيز الاجتماعي (السكني، الصحة، مجال التكوين) فإن الفلاح يعطيها الأولوية. أما نظرة الفلاح إلى دور الدولة في فتح آفاق جديدة، فهي نظرة ديناميكية تجسد في حد ذاتها قطيعة بالنسبة لمفهوم « المخزن ». حيث أن العائلة الفلاحية ترى في الدولة قوة جبارة تتحكم في جميع مجالات الحياة : وهي تدرك بأن هذه القوة الجبارة ومن يجسدها من التقنين والادارين، لا تستخدم حالياً مصالح الجماهير الفلاحية وتعتقد بأنه من المفروض أن تصبح مسخرة لخدمة مصالح الجميع. ويظهر حسب نتائج هذا البحث أن الفلاح تجاوز مفهوم المخزن التقليدي للطموح إلى مفهوم دولة عصرية تحاكي دولة الرخاء في التصور الرأسمالي، ومفهوم الدولة البروليتارية في التصور الاشتراكي.

1 - مفهوم التكنولوجيا ودورها كمحور للتغيير الاجتماعي عند العائلة الفلاحية : القطيعة الثقافية.

أكد هذا البحث أن ذلك الفلاح المنغلق أمام التغييرات، المفصول عن حركة التقدم الدائية، والمرتاح منها، أسطورة لا توجد إلا في عقل أولئك الذين لا دراية لهم بالعالم الفلاحي، أو الذين لا زالوا يرفضون منحه هذا الانفتاح، بسبب أحكام طبقية مسبقة : وينطبق الأمر بالخصوص على التقنوقراطيين الذين يحاولون تفسير فشل مشاريعهم التنموية بعوامل سيكولوجية، مثل العقلية المتأخرة للفلاح ورفضه للتغيير. ذلك أن المقابلات المسجلة لا تبرهن على أن الفلاح متفتح تجاه التغييرات فحسب بل إنه يطالب بها.

ولهذا يجب توضيح خاصية متميزة، تتعلق بتطور موقف الفلاح إزاء التقليد، للذي تحولت بكيفية جذرية أثناء مرحلة الاستقلال. فخلال فترة الاستعمار، كان التعلق بالتقليد من طرف

الفلاح، هو الوسيلة الوحيدة للدفاع عن ذاته ضد الاعتصاب الاستعماري الذي كان يتمظهر بالخصوص من خلال زرع بنية تحتية تكنولوجية واستعمال المعرفة العلمية المُحتكرة من طرف المعمرين، والتي كان الفلاح مُتعداً عنها. وقد شكل الاستقلال، قطعة مع هذه الوضعية، فالتكنولوجيا والمعرفة العلمية لم يعودا رمزين وامتيازين للعنصر الأجنبي الاستعماري، بل أصبحتا حقاً لكل مواطن ورغبة مشروعة، وخاصة لدى الفئات المسحوقة المبعدة عن الحكم واتخاذ القرارات، وأصبح الفلاح يرى يومياً مواطنين مغاربة يتحكمون فيه وفي قراراته مجرد كونهم حاملين لشهادات أولاً، ومنتمين لمؤسسات الدولة ثانياً (نعني بذلك التقنوقراطيين بما فيهم كوادر وزارة الفلاحة والداخلية والصحة والتعليم — الخ...). ولئن نفهم شيئاً من الآمال التي تراود طبقة الفلاحين إذا لم نأخذ بعين الاعتبار، أن المدارس بالنسبة لهم يشكل الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم وتمكّن أبناءهم من ولوج أبواب العالم الحديث وعصرته المُقرّبة. فحسب الاستجابات المعقدة نرى أن الفلاح يرفض التقليد الذي يساوي بالنسبة له أسلوب عيشه الحالي. حيث أن هناك أسلوبين للحياة في رأيه: أسلوب من لم يتهج طريق الحدائنة ولم ينعم برفاهيتها وهو أسلوب عيش أهل القرى؛ وأسلوب من جنى مكاسب الحدائنة وتدقت عليه خيراتها وهو أسلوب حياة أهل المدن:

« لعبو اغلينا أمالين المُدنية، مُخَلِّينَا إِبْحَالَ الحيوَان، لامدرسة لاطيب لاماء اثقي لاكمهراء. عيشتنا مرّة، مأكَلتنا مكرفسة ونعاسنا مكرفس. إلا فاض الواد كيتُرُقْنَا فالغيس، وإلا جات الحرارة كِتَشْوُطُو أَحْنَا وولادنا. لامسكن مزيان لخدمة مزيانة. كِتَشْرُفُو قبل الوقت، ماعندنا فَشْتَقِبُط، حتى المستقبل عَيَان. ولادنا مطلوقين بلاقرية ومنين يقلبو على خدمة مايلقاوها. أمالين المدينة ماخصهم خير، السينات، المدارس، السبيطارات، الضوء، المذاء في الرُوييني، الخدمة مع المخزن، عَبرين علينا أمالين المدينة حياتنا خسارة.»

فلاح له 35 سنة، وبقعة أرض ذات مساحة أقل من هكتارين — يشغل كعامل زراعي موسمي بعض الأحيان — له 4 أطفال.

فالتقليد حسب الخطاب الفُلاحي (« Le discours paysan ») هو البؤس والمرض والأمية والحدائنة هي تغيير هذا الأسلوب والولوج إلى عالم الكهرياء والبيسليين والمدرسة والعلم والتكوين والاعلام. إن الفلاح يتطلع إلى العصرية كسبيل إلى تحقيق حلم الرخاء والعيش الرغيد. من أين للفلاح هذه التطلعات إلى حياة أفضل؟ كانت هذه إحدى النقاط التي حاولنا توضيحها. من أين للفلاح بهذه النظرة المتفائلة إلى العالم وإمكاناته؟ في عدد كبير من المقابلات برزت خطابات المسؤولين بما فيها الخطابات المباشرة (في المواسم والأعياد والمناسبات المحلية) أو غير المباشرة (المنقولة عبر الراديو والتلفزة) كمنع أسامي للتصورات المتفائلة التي يطبعها المجتمع المغربي.

« مسرع عصفور... مدرس كيوغدنا القايد، المهندس، الطيب، اللي عايش معنا والي عَزَائِرِي ودايز على الطريق حتى هو يوقف ويواعدنا بالمشارع. أُوْدِي وَكَانَ غير مَأَكَاثَاغْدُه تَانَا، مايقاش الواحد كيتتم... مقناش كِتْرُضَاو بالمعيشة ديالنا.»

— درج في سن الخمسين، يملك أربعة هكتارات وبه أربعة أطفال.

سنرى فيما بعد أن التفاؤل بحياة أفضل والإيمان بمستقبل يسوده الرخاء، فكرة جديدة في مجتمعنا حيث تُجسّد قطيعة مع مفهوم « المكتوب » التقليدي. فمن ثمرات الاستقلال، ما نلاحظه من أن شعارات الطبقة الوطنية (قيادة الحركة الوطنية) المسؤولة عن بناء مغرب عصري يعمه الرخاء، غدت رغبات مشروعة وملحة لدى الفئات المبعدة عن الحداثة والرخاء، وقد تبين من خلال الاستجابات أن ليس هناك عائلة فقيرة تُشُدُّ الماضي وتتغنى بالتقاليد، معتبرة إياها مثلاً أعلى لبنيان الآفاق الجديدة وتشبيد المستقبل. هذا على العكس من خطاب التقنوقراطيين، الذي يجعل من انغلاق الفلاح عن مبادرات التغيير، عرقلة من العراقيل الأساسية في وجه السياسة التنموية. والفلاح بهذا التصور لا وجود له في هذا الخطاب. أما في الواقع كما يصفه الفلاح، فتمثل الحداثة والتغيير، الآمال المنشودة والحرك الأساسي، أفكار هذا الأخير وأعماله واختياراته وقراراته. ويتجسّد الموقف المتفائل من الحداثة في نظرة الفلاح الخاصة إلى التكنولوجيا ودورها، في أن له تصوراً واضحاً عن التكنولوجيا التي من شأنها أن تحوّل حياته إلى نعم وهو يراها مسخرة لخدمته وإرضاء حاجياته، هذا على خلاف التصور الذي يحمله عن التكنولوجيا مخطوط أنماط السياسة التنموية التي نهجتها بلدان العالم الثالث في الستينات والسبعينات، حيث تجاهلوا البعد الاجتماعي للتكنولوجيا (تسخيرها للتجهيز في مجال السكن والصحة والتعليم والتكوين...) مركزين على الاستثمارات الاقتصادية الصرفة (مشاريع السدود الكبرى، مشاريع استيراد الآلات...).

#### الاعتقاد بالقوة الحارقة للتكنولوجيا : التلفزة كأداة للتعليم والانفلات من الأمية والعزلة.

من الأفكار التي تُستتبُّ من الخطاب الفلّاحي، هي أن التكنولوجيا يمكنها معالجة جميع الأمور، بإمكانها تحويل المحيط وتطهيره، وجعله يانعا مشمرا، بإمكانها مضاعفة قدرة الفلاح على الانتاج. إن الإيمان المطلق بتكنولوجيا سحرية، فكرة تؤثر عميقا على تصورات الفلاح لمستقبله، وتعطي للخطاب الفلّاحي نبرة مذهشة من التفاؤل، تتجلى في مبالغة الفلاح في التشكي والتذمّر. ويجب الرجوع إلى الأبحاث وخاصة المتعلقة بالصحة والتعليم لتقويم الأثر الحاسم لهذا الاعتقاد وتشعباته على مستوى السلوك. وسنكتفي هنا بالتذكير بأن هذا الإيمان بالتكنولوجيا يتمظهر عبر مركّب للاحساس بالدونية شديد الحدة تجاه المتعلمين، وعبر تعطش "علم، تعطش للاطلاع فيما يتعلق بالتكنولوجيا القابلة للاستعمال فوراً على صعيد الحياة اليومية، والرغبة الجامحة في امتلاك جهاز تلفزيون (حتى ولو لم تكن الكهرباء متوفرة) هي مظهر لهذا التوق. فالتلّفاز يدرك من طرف الكبار كأداة للتكوين والتعليم وللإطلاع والتعرّف، ولحاولة تعويض التأخر التراكم فيما يتعلق بالمعارف. إنه يدرك كأداة لتجنّب لعنتين مرتبطتين بحياتهم القوية : الأمية والعزلة

إن وسنن الاعلام الجماهيري كأداة للاتصال مع الخارج، مع احداثه، مع التحويلات، أصبحت ذات أهمية كبرى بالنسبة للعائلة الفلاحية، ففي دوار بكارة الغير متوفر على الكهرباء يجسد اكتساب التلفزة رمزاً لقدرة العائلة على دخول عالم الحداثة، ومغادرتها العزلة عمّا يروج في العالم.

« إنني أفضل حرمان ابنائي وزوجتي من الخبز وشراء البائري للتلفرة. بالنسبة لي أصبحت التلفرة ضرورية للإنسان، وإلا فإنه يعيش في انزعال يُشبه انزعال الحيوان، فالتلفرة تلعب بالنسبة لي ولزوجتي دور المدرسة التي كانت مسدودة في وجهنا ». هكذا يتكلم رب عائلة من دوار بكارة، عمره 30 سنة وله أربعة أطفال، أكبرهم في المدرسة، والآخرون في الكتاب. وبالطبع تختلف العلاقة مع التلفرة في دوار سيدي عدي، الذي تعمه اللغة البربرية. حيث يُلمس احساس حدًّا بالخرمان، تجاه التلفرة التي لا تستعمل إلا العربية أو الفرنسية، ومدى هذا الاحساس بالخرمان مؤاثر المدى الانهار بوسائل الاتصال الجماهيري.

وكخلاصة لهذه النقطة يمكننا القول بأن العائلة الفلاحية قد اتجهت دفعة واحدة إلى الديناميكية، وإلى مستقبل يضمن الرخاء للكُل باستعمال تكنولوجيا حديثة والإيمان بدولة حديثة قادرة على تحقيق حلم الرخاء وتغيير الفقر والحمول والانزعال، وهي مفاهيم تربطها هذه العائلة بمفهوم الماضي والتقليد.

2 — مفهوم الدولة ودورها كمحور للتغير الاجتماعي عند العائلة الفلاحية : القطيعة السياسية.

من الأفكار الجديدة التي تتبناها العائلة القروية الفقيرة، هي أن الدولة تلعب دوراً حاسماً في تغيير الأوضاع الاجتماعية من جهة، وأن تحسين وضعية العائلة الفقيرة قرار سياسي تنفرد به الدولة من جهة ثانية. إن هذه الرؤية تجسّد قطيعة بالنسبة لمفهوم « الخزن » التقليدي، وهو مفهوم سلبي في تراثنا الوطني<sup>(2)</sup>.

فالتفكير المتزايد الذي تعانیه العائلة الفلاحية، ولا سيما التقلص المستمر للملكية الأرض التي تتحكم فيها العائلة، أدى بهذه الأخيرة إلى الاقتناع بأن حلّ هذا المشكل، أي تحسين المستوى المعاشي، ليس في متناول الفرد بل بيد الدولة. وإذا كانت العائلة الفلاحية لا زالت ترغب في الملكية الخاصة للأرض، وهو مطلب وطموح فردي (individuisme)، فإنها في نفس الوقت تدرك أن استغلال الأرض استغلالاً إيجابياً يستحيل دون تدخل الدولة وامتداد إعانتها للأفراد، وتدخل الدولة هذا يكتسي هنا طابعاً سياسياً صرفاً.

يمكن القول أن هناك جانبين لهذا التصور الجديد للدولة. جانب تقليدي، وهو الاعتقاد في الدولة الجبارة التي تتسم بقوة شبه سحرية، وجانب عصري، وهو مفهوم دولة الرخاء (wellfare state). وهذا الجانب يجسّد في نظرنا قطيعة مع المفهوم التقليدي للمخزن. كما أن له أهمية قصوى في الحياة السياسية، حيث تتبلور فيه ديناميكية الشعب المُبعد عن القرار لأنه أصبح الآن يطمح إلى دولة مسخرة لحاجياته. وعلى عكس التحليلات التي تقدم تصورات الفئات الفقيرة إلى دولة قادرة على سدّ كل الحاجيات كمنصّورات سلبية، لأنها تبرز نزعات الانتكالية والابتعاد عن المسؤولية، فإننا نحلّل هذا التعطش إلى دولة تضمن الرخاء كمنصور جد عصري، لأنه يبرز وعي الفلاح بمقولتين أساسيتين :

1 — الدولة العصرية قوة جبارة في بلدان العالم الثالث.

2 - هذه القوة يمكن أن تكون مسخرة لخدمة فئات معينة، والفقير يطمح إلى أن تصبح مسخرة له ولحاجياته.

وستتطرق لتصور العائلة الفلاحية للدولة، ودورها من خلال تحليل موقف الفلاح إزاء مشكلة تزايد السكان، أي العلاقة بين الطبيعة والانسان، وذلك لتوضيح بعض الالتباسات والاعتبارات التي تُوجَّه للفلاح، ولا سيما ما يتعلق بكونه ذا نزعة توالدية (Pro-Nataliste) وعدم وعيه بضغط تزايد السكان على فرص تحسين المعيشة.

### — موقف الفلاح إزاء تزايد السكان وأبعاده السياسية والاقتصادية :

كان السؤال هنا هو : هل هناك علاقة بين تحليل الفلاح لقضية تزايد السكان وتصوره للدولة ودورها ؟ هل يدرك الفلاح أن فرص تحسين معيشة أبنائه لها ارتباط بعددهم أم لا ؟ إذا كان الفلاح واعياً بالعلاقة الموجودة بين تزايد السكان وتقلص بقعة الأرض فلماذا لم يتخذ موقفاً صارماً إزاء التخطيط العائلي ؟ ومن هو يا ترى المسؤول في نظره عن مصير أطفاله ؟ ثم هل الموقف التوالدي للفلاح ناتج عن جهله وأميته، أم أنه موقف سياسي واع وعقلاني إذا وضع في إطار صراع الطبقات ؟.

### • مسلمة الفلاح المستلب :

إن المنزلق الكبير الذي يسقط فيه عدد هام من التحاليل حول المسلكية الديموغرافية داخل الطبقة الفقيرة، هو اتهام رب أسرة فقيرة له ثمانية أطفال بانعدام الوعي وباللاعقلانية. فحسب هذا التفسير، لو استطاع المواطن الفقير أن يُقَوِّم عقلانيا وضعيته لقلل عدد أطفاله، لكي يُحسِّن مستوى عيش العائلة كلها، إلا أن هذا النوع من الاستدلال خاطيء، لأنه لا يأخذ بالاعتبار السياق الاقتصادي الذي تقع فيه عملية التقرير الديموغرافي هاته. هذه البرهنة (إذا خفضنا عدد الأطفال، فسُنْمِي وفرة المصادر العيشية) ليست حقيقية إلا في السياق الذي يُدرك فيه الفرد نفسه كعنصر حي ونشط داخل رخاء اجتماعي عام ودائب. السياق الذي يعرف عيه أن العنصر الوحيد الذي بإمكانه فك خناق وضعية التقهقر المستمر التي يعانيها الآن، هو البلوغ إلى نخط مغاير للعيش. وهذا النخط الجديد محوره قرار الدولة لا قرار الفرد. وهو في نظرنا غير خاطيء في تحليله. إن الفلاح يعلم بأسلوب جديد للحياة، يخالف تماماً للأسلوب التقليدي، يعلم بأبناء مندجين في الحياة العصرية، حاملين لشهادات مدرسية تبرهن على / وتجسد كفاءاتهم، ومُشْتَغَلِينَ من طرف دولة غنية تتحكم في ثروات البلاد وتسهر على توزيعها بعدل. والفلاح مقتنع بوجود قطيعة بين أسلوبين للحياة، أسلوب قديم بائد وأسلوب جديد أَلِيَقٌ وأحسن، إلا أنه مقتنع كذلك بأن تحقيقه للأسلوب الجديد لا يرتبط بخياره وإرادته فقط، بل بإرادة الدولة كذلك. إن الفلاح يعرف جيداً أنه لا يضمن وصوله ووصول عائلته إلى المدرسة والمستشفى بمجرد تخفيض عدد أطفاله، هذا الوصول يتوقف، بالنسبة له، على سلطة خارجة عن إرادة العائلة، وهي تدخل الدولة. إن الفلاحين المبحوثين يلمسون ازدياد تقهقر ظروف عيشهم. فاستحالة الوصول إلى المدرسة وشهاداتها يُعاش كرمز لهذا الإنعقاد من حظوظ الارتقاء، والأطفال، ذكوراً

وإنثاء، في هذا التصور، لا يتدخلون نهائيا كعوامل للارتفاع، بل يُعتبرون فقط كمستودع لتليد العاملة من جهة وكأدوات لتقوية الحق في الأرض من جهة أخرى. الفلاح الغرباوي مثلا، يعي أنه يلعب وهو خاسر مسبقا، لكنه يعرف بأنه محاصر داخل دور الخاسر في جميع الحالات.

إن الضغط الديموغرافي موجود، لكن علته بالنسبة للفلاح ليست من طبيعة ديموغرافية فقط، بل هي من طبيعة اقتصادية وسياسية كذلك. فعلى أساس الوظيفة التي للأرض يطرح المشكل العميق للعلاقة « بين السكان والموارد ». ويستشعر الفلاحون الضغط الديموغرافي بشكل قوي، فهم يلمسون تقلص الأرض التي يملكها الفرد، وبالتالي، فعدد السكان بالعلاقة مع المساحة، ينمو بكيفية غير مضبوطة. لكن هذه القطيعة في التوازن سكان — موارد، سكان — أراضي ليست ناتجة عن علة ديموغرافية (انخفاض الوفيات أو تكاثر نسبة التوالد فقط) وإنما ناتجة عن سبب تاريخي واقتصادي. وأخيرا تجسّد مساحة الأرض التي تتحكم فيها العائلة، عاملا ديموغرافيا ثقيلا للوزن. حيث يكتسب الموقف التوالدي حدة وإيقاعا عميقين، مع تقلص بقعة الأرض التي تتوارثها العائلة، ويمثل دوار بكارة حالة قصوى لهذه الظاهرة، حيث يتسم الفلاح المتوسط والكبير (أي الذي له بقعة أرض تفوق 20 هكتار غير مسقية) بموقف صارم إزاء حجم العائلة، وهدفه المنشود هو الحجم الصغير. أما الفلاح الصغير الذي لا تزيد مساحة أرضه على ثلاث هكتارات، فهدفه هو التكاثر من الأطفال وتوسيع حجم عائلته. بالنسبة لصغار الفلاحين في بكارة يُدرك الطفل كعنصر ذي مردودية، حتى ولو لم يكن متعلما، وحتى لو كان عاطلا ولا إمكانية لديه للحصول على الأرض في الظروف القائمة، ذلك لأن هذا الفلاح ينظر إلى عدد أطفاله كوسيلة لتحقيق مطالبه السياسية، أي إرغام الدولة في المدى البعيد على إرجاع الأراضي التي سبق أن نزعتها المستعمر من القبيلة والتي توجد الآن في يد الفلاح المغربي الكبير، إلى أهلها « الشرعين » أ.ب. أبناء القبيلة.

وحدارصه هذه الفكرة يمكننا ان نقول ان سلوك الفلاح الفقير وموقفه من ضبط حجم العائلة، هو سلوك مبني على تحليله الخاص لوضعيته وعلى وعي مبنثق من تأويله للقوى الاجتماعية المتواجدة (الملاكين الكبار القاطنين بالمدن، الدولة وممثليها ومؤسساتها، الملاكين المتوسطين .. الخ) التي تؤثر في مجرى حياته. من هنا يظهر أن الموقف التوالدي والإرادة في التكاثر من عدد الأطفال ليس بموقف لا عقلائي من طرف الفلاح الصغير، بل على العكس تماما، إنه موقف في منتهى العقلانية من منظوره الطبقي الخاص.

هذا فيما يخص الوعي كعنصر محدّد للمسلكية الديموغرافية، لكن هناك عناصر أخرى مادية تتحكم في هذا السلوك، ألا وهو العجز في التغطية الصحية بالنسبة لمن لا يتوفر على وسائل النقل مثلا، أي الجانب الطبقي للانتفاع « بالمصلحة العامة ».

« مسلمة » المصلحة العامة » : تأثير العامل الطبقي على المسلكية الديموغرافية :

من مسلمات الدولة المغربية الجديدة التي برزت بعد الفترة الاستعمارية، هي أنها تستثمر

جهودها في « مصالغ عامة » أي مسخرة لجميع المواطنين على حدّ سواء كالصحة والتعليم مثلا. ولكننا حين نتركب على التحليل الميكروسوسولوجي (Micro-Sociologique) لهذه المسألة، يتضح لنا أن هذه المصالح التي تهدف إلى خدمة الصالح العام يعثر تحقيق هدفها بديناميكية الطبقات الاجتماعية المتواجدة في البلاد. فبعض الطبقات تنجح في تسخير هذه « المصالح العامة » مبدئيا لخدمة « مصالحها الخاصة ». ومن مشاكل العالم الثالث، عجز « المصلحة العامة » الممولة من طرف الدولة عن تحقيق هدفها العام، حيث يتطلب تعميم المصالح وفوائدها، حدّاً أدنى من الإمكانيات لا يتوفر إلا لدى بعض الفئات. مثلا جل العائلات في بكارة تسعى إلى تخطيط الولادات، ولا سيما إلى ضبط المباعدة الزمنية بين كل ولادة وولادة. ولكن بالنسبة للعائلات الفقيرة يظل هذا المسعى على مستوى الحلم، لأن امكانية استفادتها من التغطية الصحية شبه مستحيلة. ففي دوار سيدي عدي وفي دوار بكارة، ترغب الكثير من النساء في تنظيم الولادات، لكنهن لا يستطعن تحقيق هذه الرغبة بسبب الخصاص والقص في بنيات المصالح الطبية، مثلا استعمال موانع الحمل العصرية يتطلب الاستشارة مع الطبيب ومتابعته، لكن جل النساء يقمن بمبادرات عفوية دون الاستشارة مع الطبيب أو الممرض، وذلك لأن السعي إلى زيارة الطبيب يتطلب تكاليف هائلة فيما يخص الوقت والمال (ولا سيما وسائل النقل). لذلك تكتفي المرأة في غالب الأحيان باللجوء إلى استفسارات من طرف المكلف بالصيدلية أو من طرف عناصر غير مؤهلة (كالمعارف والصدقات والأزواج.. الخ) أو تتراجع إلى استعمال الوسائل التقليدية، التي تعرف جدّاً ضعف فعاليتها. وتجدر الإشارة هنا إلى تغيير جدّ مهم في الديناميكية الجنسية (Dynamique de Sexe) وهو أن الربط الذي نسارع إليه بين الحدائث والتقدم، هو ربط خاطيء أحيانا. إن الحدائث كما تنعكس في حياة النساء بالدوارين المذكورين، فيما يخص مسؤولية تخطيط الولادات تجسّد إبعاداً عن بعض القرارات وتمهقراً فيما يخص تقرير المصير التناسلي.

• مسألة ارتباط العصرية بالتقدم : الديناميكية الجنسية في العالم القروي.

إن تقرير المصير التناسلي (Le devenir reproductif) في مجتمعنا التقليدي كان بيد النساء. فقد كانت المرأة هي التي تقرر باستشارة مع نساء أخريات (الأم، الأخت، الجارة، الصديقة، القابلة الخ..). المباعدة الزمنية بين الولادات، وذلك باللجوء إلى وسائل تقليدية لمنع الحمل (العشوب مثلا) أو الاجهاض. إلا أن ما نلاحظه من خلال هذه البحوث هو أن تقرير المصير التناسلي أصبح الآن تحت مراقبة الرجال (الأزواج، الأطباء، الممرضين). وحالة (الغرب) هامة بهذا الصدد، حيث الرجال هنا أكثر اطلاعا من النساء على وجود القرص وموانع الحمل (المعقم)، والموضوع متداول في أوساطهم بشكل عادي. كما أنهم هم الذين « يدبرون الأمر » لتزويد الزوجين بما يحتاجان إليه حين يقرران الإبعاد ما بين مدّة الولادات. أما النساء فمستسلمات، لما يتطلبه الوصول إلى المستشفى أو الصيدلية من إمكانيات مادية، ويشكّل الحصول على وسائل منع الحمل العصرية بالنسبة لمن قطعة، بالمقارنة مع ما تعودن عليه تقليديا من محاولات لتطبيق المباعدة بين فترات الحمل بوسائل شبه سحرية (الطقوس،

الإحجية، الأعشاب الخ...) وقد كان يُحتفى بهذه الطوائف التقليدية من طرف النساء، أما الوسائل العصرية، فتتطلب التمكن من ثلاثة عوامل مساعدة نادرة التوفر لديهن: المال، الحركية المكانية (mobilité spaciale)، ثم المعرفة بالتقنيات الفيزيولوجية للتوالد ولموانع الحمل.

من هنا تعقّد العوامل التي تتدخل في هذه العملية، فكروُن النساء بالغرب، لا يسجلن « التطور » إلا كضرورة للقيام بعمل منتظم وضعيف الأجر زيادة على العمل المنزلي المضني، لا يُحْمَلُهُنَّ أبداً على اتخاذ مواقف تضع موضع التساؤل علاقة الرجل بالمرأة داخل البيت، مثلما هو الحال في مدن الصفيح أو لدى البورجوازية الصغيرة. فكونهن لم يتمكنن من فوائد الخدانة (المدرسة والمستشفى والتقنية...) أمرٌ يدفعهن إلى المحافظة على موقف الامتثال التقليدي، على الأقل ظاهرياً، والرجوع إلى الزوج فيما يتعلق بالتخطيط العائلي. هذا الأخير، كما ذكرنا ذلك، له دوافع أخرى تؤثر على موقفه، وبالحصوص رغبته في زيادة حضوره من ارتفاع حصته في الأرض، بزيادة عدد الأطفال الذكور. من البيديي إذن أن المستشفى إذا كان مُتَقَبَّلاً من طرف النساء، وإذا كان سَيُحْرَهُنَّ من وساطة الزوج، فإننا سنلاحظ مسلكية ديموغرافية مغايرة.

وسيكون من الهامّ جداً أن نستكشف في العمق، موقف النساء بالغرب، تجاه مردودية الأفراد. هل يتصورن الطفل الذكر له حقاً نفس المردودية التي يعتقدونها الرجل، الذي له كميّاس ودافع مطلبٌ الحق في الأرض، أم لديهنّ مقاييس وإطارات مرجعية أخرى؟، كيفما كان الحال فإن مفهوم مردودية الأطفال يشكّل مفهوماً محدداً في المسلكية الديموغرافية، ويستحق المزيد من الإيضاح، للتمكن من تجاوز التحاليل التبسيطية للوضعية المعقدة كالتي نحن بصدها.

بالنسبة لموقف المرأة في جماعة آرزو، فإنه يظهر أكثر صرامة من موقف المرأة الغرباوية الفقيرة فيما يرتبط بموضوع تحديد الولادات، ويمكن تفسير ذلك بتاريخ العائلة في هذه الناحية، فالدور الاقتصادي للمرأة داخل العائلة الزراعية — الرعوية كان جوهرياً، في الواقع وعلى مستوى الإدراك النظري، وكان القسم الأساسي من الانتاج العائلي يتوقف عليها، لكنها في نفس الوقت كانت محرومة من الملكية ولم تحصل أبداً على الحق في الأرض. لذا كان لها دوماً موقف الثورة ضد المجتمع، هذا الموقف الذي كان يتمظهر، من جملة ما يتمظهر به، بممارسة لتحديد الولادات متقدمة وأكثر استقلالية من الممارسات عنيها في مناطق أخرى من المغرب. وهكذا فإن الرغبة القوية والواضحة بل والإرادة الملموسة لدى فلاحات آرزو، لتحديد الولادات (على عكس الغرباويات) لا يعبر عن موقف جديد، وإنما عن استمرارية في المسلكية، إذا أخذنا تاريخ المنطقة وتطور العائلة الزراعية الرعوية بها، بعين الاعتبار.

#### • خاتمة بمثابة خلاصة عامة

قدما الفكرة الأساسية التي تعكسها المقابلات المعقدة والبحث الميداني، وهي أن العائلة الفلاحية، ليست فقط قابلة للتغيير، بل تنظر إليه كحلٍّ وحيد لمشاكلها، وهذا التغيير في

نظرنا له مضامين محددة، تتجسد في الإيمان بالتكنولوجيا والدولة كقوتين هائلتين. يمكن تسخيرهما لتحسين وضعية الفقير. وسنرى فيما يلي تفاصيل هذه الخلاصة من خلال دراسات مدققة لكل من الحالتين المذكورتين : دوار بكارا في الغرب ودوار سيدي عدي (آيت واحي) في منطقة أزرو. وقد وقع الاختيار على هذه الدواوير، لأننا كنا نهدف إلى توضيح عامل أساسي في منظور العائلة القروية للتغيير، ألا وهو مدى تغلغل الرأسمالية. فاختير دوار بكارا في منطقة الغرب لكون هذه المنطقة شاهدة منذ أوائل القرن استثمارة رأسماليا هائلا لم ينقطع بعد الاستقلال، على عكس دوار سيدي عدي الذي لم يستفد خلال فترة الاستعمار وحتى الاستقلال إلا بقسط جد متواضع من الاستثمارات الرأسمالية. وكانت هناك عوامل أخرى دعمت هذا الاختيار منها العامل الجغرافي (الغرب : منطقة السهول، أزرو: منطقة جبلية) والعامل اللغوي (الغرب : العربية الدارجة، أزرو : اللغة البربرية) وأخيرا الظروف الشخصية لكلتا الباحثتين، كما مكانيات الحصول على الاحصائيات والوثائق الخ...

## ﴿ نظرة العائلة الفلاحية للتغيير : دراسة حالة دوار بكارا ﴾

أولا - تقديم عام لدوار بكارا

بكارا دوار من حجم متوسط يقع بإقليم القنيطرة بشمال المغرب داخل المثلث المتكون من القنيطرة وطنجة ومكناس.

### 1 - معطيات ديموغرافية

إن مقارنة المعطيات الإحصائية الموجودة حول دوار بكارا والتي جهزتها هيآت مختلفة أبرزت وجود تناقضات عميقة فيما بينها. فهذا الدوار يضم 155 أسرة يصل تعداد أفرادها إلى 949 نسمة<sup>(3)</sup>، وينتمي إلى جماعة المساعدة التي تضم 12 دوارا أخرى، وعلى هذا المستوى نجد تفاوتاً إحصائياً، حيث أن المونوغرافية المعدة من طرف المصالح الفلاحية<sup>(4)</sup> تحدد عدد سكان المساعدة في سنة 1978 بمجموع 6810 نسمة، بينما نجد حسب « معطيات الجماعات » لمديرية الاحصاء المنشورة سنة 1977 أن عدد سكان الجماعة المذكورة هو 24.505 نسمة. فكيف يمكن تأويل هذه التضاربات بين أرقام كل هيئة ؟. هناك افتراضات متعددة لتفسير هذه التناقضات في الإحصائيات الرسمية، نكتفي بتقديم بعضها : يُمكن أن تكون هذه الاضطرابات ناتجة عن اختلاف في مفهوم جماعة المساعدة لدى المصالح الفلاحية من جهة ومديرية الإحصاء من جهة أخرى ؛ والافتراض الثاني هو أن هذه التضاربات تبرهن عن لا مبالاة الجهاز الرسمي للإحصائيات بما في ذلك مصالح وزارة الفلاحة ومديرية الاحصاء بالعالم القروي ؛ أما الافتراض الثالث الممكن تقديمه كتفسير لهذه التناقضات العميقة حول حجم جماعة المساعدة، فهو أن الإحصائيات بصفة عامة، مبادرة فاشلة للتقويم العُلَمي للواقع في بلدان العالم الثالث. وتقصد بالتقويم العلمي، تقويماً يعكس الواقع ويُلَوِّر حقائقه.

وقد أبرزت الطريقة الكيفية (الاستجابات) وجود هوة بين الواقع كما يدركه ويُقوّمه الفلاح من جهة، والاحصائي من جهة أخرى، وتتجلى هذه الهوة في تقويمهما للبطالة والتمدرس. حسب الاحصائيين تتحدد نسبة الأفراد العاطلين بين الأولاد بـ 2,7 % وبين البنات بـ 0,6 %، أما حسب الخطاب الفلاحي فإن جُلّ الشباب والأطفال من الجنسين عاطل. وتجدر الإشارة إلى أن نصف سكان المساعدة أطفال لهم أقل من 15 سنة، إضافة إلى أن نسبة الشباب بين 7 و24 سنة، تشكّل وحدها 37,7 % من سكان الجماعة، وتمرّسهم يظل جزئياً وسطحياً. فأغلب التمرّسين يغادرون المدرسة في مستوى المتوسط الأول، فيُحكم عليهم بالبطالة لأنهم يرفضون مُباشرة المهام الزراعية التقليدية الصغيرة والضعيفة المردودية التي يملكها آباؤهم.

وحسب الخطاب الفلاحي، تُعتبر الغالبية الساحقة من الشباب بهذا المعنى عاطلة. ومسألة اعتبارهم العمل الموسمي كثير التقطع ومُشتتاً على طول السنة، كشكل للبطالة يذهب ضحيته بنفس الصورة الأولاد والبنات والمراهقين من الجنسين، لا تسعنا إلا أن نوّكد الهوة الموجودة بين هذه النظرة الفلاحية وبين تخمينات الاحصائيين. إن الشعور بالخيبة فيما يخص مستقبل الأطفال والشباب يُعاشُ بِحدة في الغرب، لأن هناك إدراكاً قوياً لكون المنطقة غنية وخيراتنا تندفق، ولكن على فئات معينة فقط.

## 2 - البنية الزراعية : تحويل الأراضي من يد المعمرين الأجانب إلى يد الرُسماليين المغاربة والدولة.

ميزت الطبيعة هذه المنطقة، فكانت نقطة انطلاق عملية كبرى لـ « التحديث القروي » بواسطة استثمارات ضخمة من طرف رؤوس أموال موجهة لتحويل البيئة الطبيعية نفسها للمنطقة من سُدود، تجفيف المستنقعات، مكينة الخ... وبعد انتهاء فترة الحماية الاستعمارية السياسية وعلان الاستقلال، جرى نقل الأراضي من أيدي المعمرين، لا إلى قبائل المنطقة، ولكن إلى المستثمرين المغاربة الذين قاموا بشرائها.

ولذا لا يمكن أن نفهم نظرة الفلاحين الغريباوين التي تَمسّ مشاكل التنمية والسكان، إذا لم نشدد على هذا العنصر الأساسي، لأنه هو الذي يحدد سلوكهم أكثر من أي دافع آخر. فبسبب اعتراضهم على شرعية الملكيات الخاصة، واعتبارهم للأراضي التي تُسيرها الدولة كأراضيهم، حسب قراءتهم للتاريخ، فإنهم يزيلون من عدد أطفالهم، ويستعملون الأبناء العاطلين في الزواج مبكراً والانجاب، رغم التضاؤل الشديد لحجم القطع الأرضية (من 0,70 إلى 0,60 هكتار) (راجع الملحق)، حيث يقدم شاب قروي من خلال حياته قضية الأرض وارتباطها بالزواج المبكر للأبناء في هذه المنطقة.

بالنسبة لهؤلاء الفلاحين، يجب أن يسعدوا الملكيات الخاصة الشاسعة، وأن تكون ضيعات الدولة في خدمتهم وتصبح مُشغلةً لأبنائهم العاطلين. هذه القناعات العميقة هي التي تحرك مسلكياتهم بصدد موضوع تزايد السكان، أي العلاقة بين الأرض والانسان، وعلقتهم بالهرة الوطنية بصفة عامة. وبدون الدخول في تفاصيل الإجراءات الثانوية التي نظمت نزاع

ملكية أراضي المعمرين من طرف المغاربة، يمكننا الاكتفاء بتسجيل ثلاثة أنواع من العمليات :

1 - نملك بعض الأراضي، الأكثر غنى وتطوراً في الغالب، من طرف الملاكين الخواص المغاربة.

2 - تسيير بعض الأراضي من طرف شركتين للدولة أنشئنا لهذا الغرض : «صوديا» قصد تسيير الأراضي المغروسة الصعبة التجزئة، و«الصوجيتا» بهدف تسيير الأراضي الجذباء وتطوير الرعي<sup>(5)</sup>.

3 - توزيع جزء من الأراضي على الفلاحين في إطار مشاريع الإصلاح الزراعي. ولأجل توضيح نتائج تحويل الأراضي من يد المعمرين الأجانب إلى يد المحليين، يجب التذكير بأحد أهم آثار هذا التحويل، الذي يلعب دوراً حاسماً في الإدراك الفلاحي للواقع، وهو تركيز أجدد الأراضي في وحدات كبرى للإنتاج المصري مُسَيِّرةً من طرف الدولة أو الخواص من جهة، ومن جهة ثانية التفتيت المتواصل للقطيع الصغيرة المستعملة من طرف صغار المزارعين. ونقدم فيمايلي أرقاماً تفصيلية عن الوضعية القانونية للأراضي التابعة للمراكز الستة للاستثمار، بدائرة سيدي سليمان، والتي تقدر مساحتها الإجمالية بـ 154.225، تتوزع على الشكل الآتي<sup>(6)</sup> :

#### أولاً : الدولة

1 - ثلاث شركات تابعة للدولة	
صوديا SODEA	: 11.180 هكتار
صوجيتا SOGETA	: 1.285 هكتار
كومأكري COMAGRI	: 2.115 هكتار
2 - المياه والغابات	: 25.075 هكتار
3 - الأملاك المخزنية	: 1.350 هكتار
المجموع	: 41.005 هكتار

#### ثانياً : الخواص

ملكيات خاصة	: 46.580 هكتار
حبوس (أوقاف دينية)	: 430 هكتار
تعاونية (استغلال جماعي)	: 17.730 هكتار
كيش (نوع من التعاونيات)	: 38.470 هكتار
تجزيئات (موزعة في إطار الإصلاح الزراعي)	: 10.010 هكتار
المجموع	: 113.2201 هكتار

أما 17.555 هكتار المتبقية فتغطي الأراضي الغير مزروعة و/ أو المستعملة للعبور، إذا أضفناها إلى 154.225 هكتار القابلة للاستثمار، تصبح المساحة الاجمالية للأراضي التابعة لهذه الدائرة هي 171.780 هكتار.

من مجموع مساحة 154.225 هكتار، توجد 28،58 % تحت مراقبة الدولة التي تبرز في المنطقة كرمز للتراء والرخاء، من طرف الفلاحين، لكونها تسيّر أجود الأراضي ولديها أقوى الوسائل والتجهيزات. من هنا نفهم الموقف التبعي للفلاحين الذين يعتقدون بعمق أن الدولة شديدة التراء، مما يُمكنها من حل جميع المشاكل، وبمصادر ثروتها لا تنضب، لكنها لا تحاول مساعدتهم بشكل أفضل بسبب سوء النية. نأخذ مثال المدرسة التي تسقط في الإفلاس والحراب، فكل سنة وتحت تأثير سقوط المطر، وعندما يأخذ السقف في التفتت يقوم السكان جماعيا باصلاحها مُرغمين. وحين نسأل الفلاحين عن سبب عدم تنظيمهم في إطار تعاوني لتحمل مسؤولية صيانة البناية المدرسية بشكل منتظم، فإن الجواب يأتي سريعا :

« ولكن المدرسة ملك للدولة، وهي غنية الى درجة استغنائها عنا. إنها كبيرة الثروة، ويمكنها القيام بكل شيء ».

وإن وجود الزراعات المرتفعة المردودية كالحوامض مثلا في يد الدولة أو يد القطاع الخاص، اللذين يقسمان أغلب الأراضي المسقية، يجعل تركيز آمال الفلاح على تدخل الدولة شبه خارق. فالتحديث القروي في هذه الأراضي (المسقية)، وهو مدعّم بسياسة الاستثمار والاعداد وارتفاع المردودية، يتناقض كل التناقض مع « التحديث » في الأراضي التي يملكها الفلاح الصغير، والتي تتسم بانعدام المردودية، وبالتفجير المتزايد لمُسْتَعْلِمِها.

ثانيا – تقويم الفلاح للسياسة التنموية التي نهجتها الدولة في المنطقة : إهمال البعد الاجتماعي للتنمية.

إن السياسة التنموية الحالية، حسب التصاب الفلاحي، خاطئة لأنها تهمل الحاجيات الاجتماعية للفلاح. كانت العائلة التمردية من المبرمج الأساسية، التي طلبنا من المُسْتَعْلِمِين تناولها بعمق خلال ...، حتى نتاح لنا فرصة لكشف طموحات العائلة الفلاحية من جهة واحياضها من جهة أخرى. وكان الهدف هو تحديد الأولويات بالنسبة للعائلة الفلاحية : هل هي نفسها التي تستثمر فيها الدولة ؟ أم أن هناك فرق في تصور هذه الأولويات من طرف المخطّط ومن طرف الفلاح ؟. وقد أبرزت هذه المقابلات وجود فرق شاسع بين الطرفين المذكورين، فبينما تهمل الدولة الجانب الاجتماعي كمدجال للاستثمار، يعتبر الفلاح هذا المجال ذا أسبقية، فهو الذي كان على الدولة أن توجه إليه استثمارات التحديث القروي. وقد اتضح عبر هذه المقابلات أربعة محاور تتمركز حوفا تطلعات العائلة القروية وطموحاتها وهي : الصحة، التعليم، الكهرباء وأخيراً التشغيل. وقبل أن نتناول كل محور على حدة يجب توضيح الفكرة الأساسية التي تتجلى في كل من هذه المحاور، وهي أن العائلة الفلاحية لم تعد متشائمة مثلما كان الحال عليه في تراثنا التقليدي، بل أصبحت متفائلة، ففكرة « المكتوب » والاستسلام للفقر والرضى بمستقبل لا يضمن الارتقاء والحركة الاجتماعية

أصبحت فكرة بائدة. لا يؤمن بها الفلاح المعاصر، ففكرة « المكتوب » اندثرت وعوضتها فكرة المستقبل الزاهر الحافل بأمانى الرفاه والرقي.

1 — الثورة الثقافية في عقلية الفلاح : غياب فكرة المكتوب والاستسلام له و بروز فكرة الرفاه والحركة الاجتماعية.

إن التطلعات إلى الرفاه لدى الفلاحين تُشكّل في حدّ ذاتها قطعة تامة مع تقليد القدر والبؤس، الحاضر ككليا في التراث الشعبي المغربي، سواء أكان قرويا أم حضريا. فمفهوم « المكتوب » طاعني السلبية في الغالب، إنه قدر ثابت للمعاناة لا يمكن تَجَنُّبه، وهو من الأفكار النافذة بقوة في الثقافة المغربية التقليدية، التي تحاول أن تُكوّن لدى الفرد نمطاً جوهريا للعيش أساسه « الصبر »، التحمّل والجِد، التحمّل للشقاء والبؤس، والجِد أمام المجاعات والأوبئة التي تقصّر أعمار الأفراد<sup>(7)</sup>. إن الأغاني والأمثال الشعبية حافلة بالتعني بهذا المكتوب وهذه القدرية العمياء، وتتجلّى فلسفة الاستسلام هاته في عدد كبير من أمثالنا الشعبية وذلك من خلال مواقف وقضايا مختلفة منها :

أ — فكرة البؤس كأفق للمستقبل :

تصاحب هذه الفكرة في غالب الأحيان فكرة ثانية، وهي الاستسلام إلى القوى القاهرة التي تتحكم في المصير بما فيها القدر أو الزمان أو الدنيا أو الأيام، في صمت وخمول :

الدُّنْيَا مَنَظَرُهَا دَرَاعَةٌ مَا يَلْبَسُهَا غَيْرَ أَلِيٍّ يَشْطُطُخُ  
يَلْبَسُهَا وَيُدْوَحُ بِهَا سَاعَةٌ وَيَنْكُدُّ عَلَيْهَا بَعْدَ مَا يَفْرُخُ  
المجدوب

الدُّنْيَا يَسْمِيئُهَا نَاقَةٌ إِذَا عَضَّتْ بِخَلْبِهَا تَرْوِيكَ  
وَإِذَا عَضَّتْ مَا تَشُدُّ فِيهَا لِبَاقَةٌ يَتَكَفَّحُ وَلَوْ كَانَ فِي يَدَيْكَ  
المجدوب

مَنْ لَا يَقْرَأَ لِلزَّمَانِ عُقُوبَةَ يَجِي عَلَى رَأْسِهِ مَكْتُوبٌ  
المجدوب

. الدنيا ما عطاها غاها حتى لو أخذ.

. غرايب الدنيا أكثر من مصائبها.

. المسكين يلبس غرايو.

ب — الألم في عزلة وصمت كأفق للمستقبل :

مَثَلْتُ رُوحِي لِلْحَمَامِ مَبْنِي عَلَى صَهْدِ نَارُو  
مَنْ فَوْقَ مَابَانَ دُحَانَ وَمَنْ تَحْتَ طَابُو حَجَارُو  
المجدوب

عَيَّطْتُ عَيْطَةَ خَيْبَةٍ قَيَّطْتُ مَنْ كَانَ نَائِمٌ  
نَاضِبُو قُلُوبِ الْمَخْنَةِ وَرَقَدُوا قُلُوبَ الْبُهَائِمِ  
المجدوب

الْهَمُّ يَسْتَهْلُ الْعَمَّ      وَالسَّنْرَةُ لُهُ مَلِيحَةٌ  
رَدَّ الْجَلْدُ عَلَى الْجَرْحِ      ثَبْرًا وَتَوَلَّى صَحِيحَةٌ  
المجدوب

### ج - تقبل الفوارق الطبقية كمسلمة

لَا تُرْفَدُ الْهَمُّ دِيمَةٌ      لِأَتْخَمِّمْ لِأَتْدَبِرُ  
وَلَا الدُّنْيَا مُقِيمَةٌ      أَلْفَلْكَ مَا هُوَ مُسَمَّرُ

المجدوب

وَالرَّيَّانُ كَيْفَ نِجْمَةِ التُّومِ      أَلْيَ رَاقِدٍ عَلَى لَكُطِيفَةِ دَاقِي  
وَالرَّاسِي يَضْحَكُ عَلَى الْهَمِّومِ      الْمَصْبُطُ مَا ذَرَا بِالْحَافِي

المجدوب

وَحَمَمْتُ فِي الْأَرْضِ سَاعَةً      ضَرَبْتُ كَفِّي لَكَفِّي  
وَتَنَوَّضُ مِنَ الْجَمَاعَةِ      صَبْتُ قَلْتُ الشَّيْءَ تُرْشِي

المجدوب

### د - مفهوم الصبر والالتزام بالصمت وانعدام المبادرات لتعبير الوصع .

الصبر مفتاح كل خير .  
الْفَارُ الْمَقْلُوقُ مِنْ سَهْمِ الْقَطِّ

اصْبِرْ عَلَى مَا جَرَى لَكَ      بِاصْأَحْبِي كُونَ صَبَّارُ  
حَتَّى يَطْلُعَ نَهَارُكَ      ارْقُدْ عَلَى الشُّوْكَ عَرِيَانُ

المجدوب

الصَّبَّارُ كَثِيرٌ وَالْمَقْلُوقُ كَثِيرٌ  
اصْبِرْ عَلَى الْقَلِيلِ يَا بَيْتُكَ اللَّهُ بِالْكَثِيرِ

وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ عَلَيْنَا      مَكْتُوبٌ رَبِّي تَوَدِّيهِ

المجدوب

في تراننا الشعبي التقليدي كانت السعادة تُدرك كمعجزة بعيدة التحقق على الأرض، حيث تُعتبر « الحياة الدنيا » مجرد فترة قصيرة شقية، يُعبرها الانسان وهو في انتظار السعادة التي لا تتحقق إلا في الآخرة، في سراب الجنة، إن الترف والرفاهية في ثقافتنا التقليدية من صفات الجنة التي تضمن السعادة للمؤمن جزاءً عما قاساه من احباطات في « الحياة الدنيا ». وتُجدر الإشارة إلى أن الترف الذي كان يعيش فيه المعمرون الفرنسيون في الثلاثينات والاربعينات، قد دفع الفئات الشعبية إلى التساؤل عن امكانية تحقيق السعادة في الأرض، فَكَوْنَتْ تحليلاً مطابقاً للفلسفة التقليدية التي تؤكد أن السعادة من سمات الجنة الموعودة، وذلك بإعطاء توير ديني لأسلوب عيش المعمرين مفاده أن المستعمرين الفرنسيين مسيحيون، لهم دين مغاير ولا يمكنهم دخول جنة المسلمين وبالتالي فإنهم « يعيشون جنتهم على الأرض ».

لكن بعد الاستقلال برزت فئة من المواطنين، تشبه في أسلوب عيشها ترف المستعمر الفرنسي، ألا وهي فئة الملاكين الكبار والتقنيين والاداريين، لهم سيارات خاصة تنقلهم إلى العمل وتنقل أبناءهم إلى المدارس، يعيشون في بيوت يتوفر فيها الماء والكهرباء والأطعمة المختلفة وغرف متعددة ومُجهّزة، إلا أن هؤلاء المواطنين مسلمين، وبالتالي فهم يعيشون ما يشبه الجنة على الأرض. وهكذا أصبحت نماذج حياة الفئات البورجوازية بما فيها الكبيرة والصغيرة، نماذج جديدة للسعادة والسعي إليها كمطلب شرعي وعادي من طرف أي مسلم.

إن مطلب « السعادة » هنا (على الأرض) والآن (في الحاضر، في الحياة) يُمثّل قطعة عميقة وجذرية مع التقليد الديني، الذي أُبعدت فيه الجنة عن الواقع وعن الحاضر وكَبِثَتْ باتجاه مستقبل أسطوري. ومطلب الجنة على الأرض من طرف فلاحي الغرب مُحاط من كل جانب بمكاسب التكنولوجيا الرأسمالية، من آلات دقيقة، ومحركات شبه سحرية، ومضخّات لجلب الماء وتصفيته، ومن مدارس ضامنة للوصول إلى النجاح، وتلفاز يفتح باب السفر إلى المُتخَيَّل، إن هذا المطلب اقتصر تحقُّقه على بعض المحظوظين. والفلاح الفقير يشعر أنه مطرود من هذه الجنة الراهنة، مما يترتب عنه جوّ الصراع الطبقي الذي يطبع أبسط مواقف الفلاحين وحركاتهم، كيفما كان سنهم أو جنسهم. من هنا، وبعد توضيح معالم الثورة الثقافية في عقلية الفلاح، يمكننا إنجاز مطلب الرفاه في ثلاثة قضايا مركزية: الصحة، والمتراذفتين مدرسة — عمل، ثم الكهرباء.

## 2 — القضية الأولى: التطلع إلى الرفاه: الصحة كإعادة صياغة للبيئة.

إن فكرة تقبُّل المرض والموت المبكر، المنتمية إلى فلسفة « المكتوب » والقدر الخ.. أصبحت مرفوضة من طرف الفلاح وذلك لأن « الأغنياء ينجون منها » لأنهم محظوظون بسبب امتيازاتهم كالماء النقي والولوج السهل إلى الخدمات الصحية والتكوينية، واستعمال الكهرباء وما إليها..

### أ — مشكل الماء:

مطلب ضمان الصحة بالنسبة للفلاح لا يقتصر على طلب الخدمات الصحية وحدها، ولكن يعبر عنه منذ البدء كترغبة قوية للتحكم الكلي في المحيط الطبيعي، وهي رغبة مركزة على مُشكلة الماء. لدوار بكارة وسيلتان للتزود بالماء: الآبار والأنهار، ويتوفر الأشخاص المسورون على بئر مغطى، حيث يُضخُّ الماء آلياً، وحين يوجد بئر لدى الفلاحين الفقراء، فعاباً ما يُستفاد منه يدويا (تجدد الإشارة إلى أن ماء الآبار قذر وذو مذاق لا يحتمل حسب الفلاحين أنفسهم).

إن المطالب المتعلقة بالماء تتحدد في مستويين:

— مستوى طبيعة الماء: مشكل التلوث الذي يشعر به الفلاحون الفقراء بشكل قوي. هؤلاء الفلاحون لم يتمكنوا من تجاوز العقبات التي تمنعهم من ادخال التجهيزات المائية الحديثة، ومنها الشفاطات بين المجموعات الاجتماعية وانعدام الوسائل المادية.

— مستوى الدور التقليدي للنساء كجاليات للماء، والذي يمتص جزءاً لا يستهان به من طاقتهم ويتحكم عليهن بأداء هذا النشاط كجزء لا يتجزأ من العمل المنزلي، تنجو منه نساء الفئات المسورة.

إن جلب الماء النقي للعائلة، هو إحدى العقبات أمام تدرس الفتيات في العالم القروي، فالأم محتاجة لهذه اليد العاملة الاضافية لمواجهة الأعباء المنزلية : في هذا الإطار فتاة في المدرسة تعني خادمة ضائعة. إن دور الأطفال في الخدمات التي يتطلبها نمط عيش العائلة القروية الفقيرة، ولا سيما فيما يخص جلب الماء وتجميع الحطب والسهر على الحيوانات، من المتغيرات المؤثرة في المسلكية الديموغرافية لهذه العائلة. فالأمهات يرغبن في إنجاب عدد كبير من الأطفال حتى يساعدهن في تحمّل الأعباء المنزلية، وبالتالي فإن العائلة القروية تطالب بماء نقي متوفر داخل المنزل لا خارجه، وهو شيء يعتبره الفلاح أساساً ضمن كل سياسة صحية إجرائية.

وتجدر الإشارة إلى أن رغبة الأمهات في إنجاب عدد من البنات أكثر من الأولاد، والذي يمكن أن نلاحظ منه نوعاً من القلق على هؤلاء، يعود إلى آفاق البطالة المرتبطة بمستقبلهم ووضعتهم، ورغبةً بإنجاب البنات تحررهن نسبياً من مثل هذه الهموم.

### ب — مشكل الولوج الى الخدمات الصحية :

إن الفلاح، فقيراً كان أم غنياً، يرفض الطب التقليدي لمواجهة المرض ويتطلع للولوج إلى الطب العصري، الذي حسب رأيه هو الوسيلة الوحيدة القادرة على ضمان الحياة الجسدية الهنيئة والسليمة. ولكن يجب التمييز كما هو الحال فيما يتعلق بموضوع الماء الصالح للشرب، بين مستويين : ما يتعلق بالتطلعات، وما يتعلق بالسلوكات العملية.

فاذا لم يكن على مستوى التطلعات فرق بين الطبقات الاجتماعية، فإن العكس هو ما نلاحظه على مستوى السلوكات، حيث الفوارق شاسعة. فالفلاحون — أغنياؤهم مثل فقراؤهم — يتطلعون للاستفادة من التقنيات العصرية في ميدان الصحة، والجميع بدون استثناء، يعقدون رابطاً مباشراً بين الوصول إلى الخدمات الصحية العصرية وبين الرفاه العائلي، وبالأخص ما يتعلق منه بالطفل قبل ميلاده وبعده. إن الحمل والولادة من النقط التي تتبلور فيها الحرمانات فيما يتعلق بالطب، وتعتبر الطريقة التي تضع بها المرأة حملها، وذلك من طرف الأسر ومن طرف الأمهات بالأخص، كمقياس لا يجادل فيه للحظوة، وكمرادف للقدرة الشرائية. فإذا كانت النساء الفقيرات لا تحصلن في فترة الحمل على أية رعاية طبية. وتلدن في المنزل بمساعدة موكدة تقليدية، فإن النساء المسورات، عكس ذلك، يفتخرن بمتابعتن من طرف الطبيب منذ الأسابيع الأولى للحمل ووضعهن في واحة طبية عصرية، ونضيف بهذا الصدد أن الوصول إلى الخدمات الصحية فيما يخص التخطيط العائلي يعتبر كذلك من مظاهر الحظوة ومن امتيازات العائلات المسورة، ويجب التفرقة هنا أيضاً بين مستوى الطموحات ومستوى الممارسة، لأن المستوى الأول غير مقرون بالامكانيات المادية بينما المستوى الثاني مُقيدٌ بها :

— سلوك العائلات الميسورة : تتبنى هذه العائلات موقفا تخطيطيا مباشرة بعد الطفل الثالث، وعادة ما يكون الرجل والمرأة هنا واسعى الاطلاع ومندمجين في العملية.

— سلوك الفلاحين الفقراء : مهما كان وعيهم بالضرورة الفعلية لتباعد الولادات من أجل صحة وتربية الأطفال، فإنهم يلمسون عجزهم عن تطبيق هذه الأفكار بسبب الفاقة.

حتى لو قبل الفلاح الفقير تقليل عدد الأطفال، فإنه لا يُحسّن وضعيته أبداً، وأن يكون لديه ثلاثة أطفال عوض سبعة فإن ذلك لا يضمن له نهائيا فرصة أحسن لتنمية دخله، ولا بالتالي الدخول إلى المستشفى أو تعليم أطفاله وتوفير ظروف تربية أحسن، فيمقدار اشتداد فقره بمقدار ما يتضاءل الاستئثار المخصص لكل طفل. إن الاعتمادات التي يمكن للفلاح تخصيصها لكل طفل ضعيفة سواء كان لديه ثلاثة أطفال أم ثمانية، إن هذا يُعتبر لديه عديم الأهمية، زد على هذا أنه إذا كان له ثمانية أطفال، فهناك حظ أكبر لضمان بقاء ولو نصفهم على الأقل، وذلك لأن نسبة الوفيات في المغرب، كما في المغرب بأجمعه تختلف حسب الامكانيات.

تخفيض عدد الأطفال إذن، بالنسبة للفلاح الفقير، شيء غير منطقي وغير اقتصادي كليا، في ضوء استراتيجية شمولية للبقاء ضمن مستوى من الفقر الشديد. فمردود وحدة الانتاج صارم إلى درجة يكون من الأفيد فيها أن يضاعف عدد الأفراد، أي عدد العاملين، ومن بينهم الأطفال، خاصة البنات، اللاتي يعتبرن عاملات منذ السنة الثالثة من عمرهن. ومن الأسباب التي تدعم هذه النظرة إلى الأطفال كبيد عاملة منذ صغرهم، في الوسط القروي، كونهم محرومون في أغليبتهم الساحقة من التعليم والتكوين.

3 — القضية الثانية : التطلع إلى الرفاه، التعليم والتطلع إلى عمل عصري كرفض جذري للوضعية الفلاحية التقليدية.

يتجلى الوصول إلى التعليم والعمل « العصري » كما لو أنه الوسيلة الوحيدة للتخلص من المصير المُعتَرّ بئيسا ومُذلاً، أي الوضع الفلاحي « التقليدي ». وبتَرَجْم هذا الموقف في رفض المدرسة القرآنية والطموح إلى ولوج المدرسة الحديثة.

أ — رفض المدرسة القرآنية كمغالطة تاريخية والتطلع الى المدرسة العصرية كأداة لتغيير المصير الفلاحي :

تعتبر المدرسة القرآنية التقليدية، كما هو الحال فيما يتعلق بالصحة، من طرف الجميع، عديمة الفعالية وعاجزة عن تهيء الطفل للولوج إلى العمل العصري. إن التجهيز التعليمي على صعيد دوار بكارا، وهو محظوظ لأن جل الدواوير المجاورة لا تحتوي على مدارس وأطفالها مرغمون على الالتحاق بمدرسة بكارا، يحتوي على ثلاثة أنواع من المؤسسات :

— الكتابيب القرآنية المسيّرة من طرف الفقهاء على الطراز التقليدي.

— « مؤسسات » تلعب دور الكتابيب القرآنية في غياب الفقهاء، ويتجسد هذا النوع

في حالة خياط يستقبل عدداً من الأطفال، يحرسهم ويعلمهم مبادئ القرآن أثناء خياطة جلابيب وقمصان الزبائن.

## — وأخيراً المدرسة الابتدائية الرسمية العمومية.

### . المدرسة القرآنية : مُسَكَّن محدود الفائدة.

هناك على صعيد بكارا، باستثناء الأربع قاعات للمدرسة الابتدائية الرسمية العمومية، عدد من الفقهاء (معلمين ذكور، لهم مسؤولية مدرسة قرآنية ويستقبلون الأطفال ابتداء من عامهم الثاني) أو أفراد يقومون بهذه الوظيفة (حالة الخياط المشار إليها أعلاه). هذه المدارس القرآنية تُمول من طرف الآباء، حيث تدفع كل عائلة للفقير حوالي درهم واحد في المتوسط كل يوم جمعة، كما أن الهدايا (بيض، حليب، حبوب) وخاصة الوجبات المطبوخة المقدمة بين حين وآخر للفقير، تضمن لهذا الأخير حداً حيوياً أدنى لا يمكن لمداخيل يوم الجمعة الغير منتظمة أن توفره له. ورغم وجود هذه المدارس القرآنية، فلا أحد ينخضع بقدرتها على إدماج الطفل في الحياة العصرية : الكبار كالصغار يعتبرونها مجرد مُسَكَّن، ذي فائدة محدودة وعارضة. بالنسبة للأمهات، تعتبر المدرسة القرآنية نظام حراسة للأطفال لقاءً مقابل متواضع، وبالنسبة للآباء تعدُّ ضماناً لترسيخ مبادئ القرآن والكتابة في ذهن الطفل من طرف الفقير. لكن الأمهات والآباء يتفقون مع الأبناء، في اعتبار المدرسة التقليدية غير قادرة على الإعداد للحياة المهنية، في حين أنهم يستثمرون المدرسة لرسالة كبيرة الأهمية، هي الإعداد للعمل، للتشغيل والتوظيف.

. المدرسة العصرية : أداة للتقدم والرقى وضمان للحركة الاجتماعية.

إن الأمان التي يستثمرها الآباء في مدرسة بكارا الابتدائية تفوق بكثير فعالية هذه المدرسة وقدرتها على إنقاذ أبناء الفلاحين من الأمية والجهل. وقد أحدثت هذه المدرسة في فترة الاستقلال، وهي من نوع البناء الجاهز، مكونة من أربع قاعات، سعة كل منها أربعون مقعداً، تضمن تهيئ المستوى الابتدائي إلى حدود المتوسط الأول فقط، لأن المدرسة مقطوعة الرأس حيث لا تتوفر على القسم الخامس، وبالتالي يجب على الآباء أن يعيشوا الأطفال إلى سيدي سليمان على بعد حوالي عشر كيلومترات لإعداد شهادة الدروس الابتدائية. هذه السنة الخامسة تشكل انزعاجاً حقيقياً وعقبة يصعب تجاوزها تقريباً، فالأغلبية الساحقة من التلاميذ المنحدرين من العائلات الفلاحية الفقيرة، لا يتمكنون أبداً من تخصيص الاعتمادات الضرورية لاجتياز هذه السنة الدراسية بأقرب مدينة. لأن عليهم في الواقع الاختيار بين ثلاثة حلول كل منها مُكَلَّف بالنسبة لميزانية عائلة فلاحية، وهي : إمَّا إحلال الطفل خلال هذه السنة عند أصدقاء أو أقرباء مما يفترض أن هذه الأسرة المضيفة مسورة إلى درجة تُمكنها من إيواء طفل زائد لمدة أكثر من تسعة شهور، بدون تَضْجِيَّات كبيرة، أو أن يكون أهل الطفل في حالٍ ميسورة يُمكنهم من تقديم هدايا وخدمات خلال هذه الشهور التسعة لتعويض الأسرة المضيفة. هذان الحلان يقتضيان إمَّا أن تكون للفلاح علاقة ما مع عائلة ميسورة قاطنة بالمدينة، وإما أن يكون قادراً على تخصيص رأسمالٍ ما (اعتمادات نقدية أو خدمات) لضمان إيواء الطفل طيلة هذه الشهور. الحل الثالث يكمن في إمكانية أداء المصاريف اليومية لنقل

الطفل إلى المدينة (ثلاثة دراهم ذهابا وإيابا)، وهو حلّ ليس فقط مكلفاً، بل يتطلب، نظراً للجهود المطلوبة من طرف التلميذ، قوّة الحافز للحصول على شهادة الدروس الابتدائية، وحتى إذا ما تمكّن الفلاح من تخصيص الاعتمادات الواجبة لتنقل ابنه، فهو غير متأكد بأن هذا الأخير سيصل في الوقت المحدد إلى المدرسة، نظراً لانعدام انتظام وسائل النقل المتوقّرة، هذا زيادة على أن فصل الشتاء بالمنطقة غزير المطر، حيث تكون الطرق مغمورة بالمياه والفيضان مستمراً خلال عدة شهور.

إن الفيضانات التي تعرفها المنطقة في فصل الشتاء تُحدث اضطراباً في الحياة المدرسية بالذوار، وذلك على مستويين :

— أولاً على مستوى سير مدرسة بكاره نفسها : فالمدرّسون القاطنون بالقرية المجاورة، باستثناء بعض الحالات، يستعملون الدراجة النارية للتنقل، إذا توفرت لديهم امكانية اقتنائها، والحال أن تغطية الكيلومترات العشر الفاصلة بين مقر السكنى والمدرسة تتطلب جهداً ينأز من يقدر على بذله، لذا غالباً ما تقفل المدرسة بشكل عام بسبب غياب المعلمين طيلة فترة طويلة من فصل الشتاء.

— ثانياً على مستوى التلاميذ المنخرطين في قسم الشهادة الابتدائية بسيدي سليمان : إن هؤلاء التلاميذ المطالبين بالذهاب إلى المدينة لاجتياز هذه المرحلة الدراسية، يضطرون إلى التخلي عن ذلك طيلة عدة أسابيع بسبب حالة الطرق المستعصية، أضف إلى ذلك أن الأطفال الذين يقطعون عدة كيلومترات، يصلون مُنهكين إلى المدرسة، حيث لا يتناولون أثناء وجبة الغذاء سوى قليل من الشاي والخبز الجاف، قبل حصّة ما بعد الظهر. إن الإرهاق وسوء التغذية والبرد هي العلل القائمة وراء الفشل المدرسي، والتي غالباً ما يتدرّج بها المعلمون والآباء والتلاميذ.

### ب — المدرسة كمؤسسة لتكوين العاطلين واجتثاث القرويين :

من هو المسؤول عن الفشل المدرسي، المدرسة أم الطفل ؟ هذا التساؤل يقسم العائلات المغربية الفقيرة إلى مجموعتين حسب المواقف. هناك العائلات التي تتخذ الموقف التقليدي أي تجعل مسؤولية الفشل المدرسي على عاتق الطفل وحده، وبالتالي تتخذ مواقف قصوى ضيّده، وتحارب « كسله » و « قلة عقله » و « غفلته » الخ... إن المؤسسة التكوينية بالنسبة لهذه المجموعة، مؤسسة مقدسة يستحيل الطعن فيها، وتكرس هذه العائلات الموقف التقليدي إزاء المؤسسة التعليمية، الذي يعكسه المثل المتداول إلى يومنا هذا :

« أنت (الفقيه) اديح وأنا (الأب) نسلخ »

يعكس هذا الموقف تحالف السلطتين، السلطة العائلية والسلطة التكوينية، حيث يسخران جهودهما لنفس الهدف : تكوين طفل صالح للمجتمع وقابل للفلسفة التي تُلهم مؤسساته وهياكله التّراثية، وخاضع لمن هو أقوى.

في العشر سنين الأخيرة ظهر موقف جديد إزاء الفشل المدرسي، حيث أضحت العائلات

تحالف مع الطفل ضد المؤسسة التكوينية، ويجسّد هذا الموقف في حدّ ذاته قطيعة ثقافية أساسية بالنسبة للوعي داخل مجموعة العائلات الفقيرة التي تعاني من الفشل المدرسي، ذلك أن هذه المجموعة تُحمّل مسؤولية الفشل المدرسي للمؤسسة التكوينية، وتعبّر بالتالي عن تفكك التحالف التقليدي بين السلطة العائلية والسلطة التكوينية. إن هذا الموقف جد مهم كوثية للوعي الاجتماعي في بلادنا، حيث أصبح المواطن (الأب) يحلّل ماهية مؤسسة ما ويحكم عليها من خلال هذا المنظور. هذا الموقف الجديد الذي يتعاطف فيه الأب مع ابنه الفاشل في المدرسة ويعتبه ضحية للمؤسسة التعليمية، يعبر في نفس الوقت، عن تقييم ذاتي من طرف الفرد للهياكل الاجتماعية والمؤسسات وماهياتها وتحالفاتها وتفككاتها. وتكونت لدى هذا الأب مسلمات متعددة أبرزها :

- إن مؤسسة التكوين لا تستخدم هدفا مقدساً.
- مصالح مؤسسة التكوين تتضارب مع مصالحه كأب.
- المؤسسة التكوينية موقف مُعادٍ له كأب لأنها رفضت ابنه.
- وأخيراً، هذا الأب مقتنع بوجود مدرسة مثالية يمكنها أن تستخدم الصالح العام، وأن تعطي بالتالي الفرصة لابنه في النجاح.

إن موقف العائلة الغرابوية المبحوثة من هذا النوع الثاني، أي أن سكان دوار بكاراة يعطفون بقوة على ابنائهم الفاشلين في المجال المدرسي، ويحمّلون المسؤولية الكاملة للمؤسسة التكوينية، التي أصبحت تجسد الخيبة والأمل في نفس الوقت، وذلك لأن عدد الضحايا يفوق بكثير عدد الناجحين :

« عمر ابني الذي ترويه، 15 سنة، إنه الآن عاطل، قضى أربع سنوات في المدرسة وأخرجوه دون شهادة، إنه ليس صالحاً لأشغال الحقل التقليدية، لذلك يظل يدور طيلة يومه ».

سؤال : لماذا لم يعد ابنك صالحاً لأشغال الحقل التقليدية ؟

جواب : لأن هذه الأعمال وسخة وصعبة، يجب التعمّد عليها منذ سنوات العمر الأولى، ولكن ابني استطاب الجلوس بين 7 و15 سنة، وهي فترة التدريب التي يتعود الجسم فيها على مشاق المهنة. شخصياً لا أشغله عندي. لماذا ؟ لأنه لا يجب هذا العمل التقليدي، يرعى الحيوانات وهو يفكر أن يصبح محاسباً، يحرث وهو يحلم بملع الأوراق في العمل. لذلك يكون عمله ناقصاً، ولا يجيد شيئاً. كلّ المُمَدْرَسِينَ لا يجدون عملاً، ولو تقليدياً، لأن لا أحد يمنحهم ثقته، وأنا بدوري أرفض أن أعطي عملاً لابني. اسأله مباشرة عن رأيه.

سؤال موجه إلى الشاب : هل تتفق مع رأي والدك ؟

جواب : مقاله والدي صحيح، إنني أخجل من مزاوله العمل اليدوي، أجده مُحطاً للقيمة. لماذا ظلت أربع سنوات بالمدرسة ؟ إنني لا أعرف كيف أمارس العمل اليدوي التقليدي، لم أعود عليه، فهو مُتعب.

سؤال : ماذا تريد أن تفعل ؟ وكيف تتصور الحل ؟

جواب : الحل هو أن تشغلي الدولة بالملك (مكتب الاستثمارات الفلاحية) أو بالضيعات التي تسيّرُها بالمنطقة، هناك أعمال عديدة يمكنني القيام بها، ولا تتطلب تعلماً كثيراً : سياقة الجرارات وآلات الحصاد وغيرها، تسجيل الفلاحين الذين يريدون استعارة الجرّار، تنظيم توزيع الماء بين المستفيدين منه، الاشتغال باطعام الحيوانات والحفاظَة عليها ورعيها، كل شيء في القطاع الخاص أكثر استساغة. أقلّ وسخاً وأقلّ تعباً، ومُؤدّي عنه بانتظام.

(فلاح عمره 40 سنة، أب لثانية أطلاق، يكره الأرض سنويا، مهنته ميكانيكي)

ما هو المسار المدرسي « العادي » وبالتالي ما هو المسار المهني للمراهق « العادي » الذي حاول في طفولته الاستفادة من المدرسة ؟ إن هذا المسار كالاتي :

1 — يُيُتُّ الطفل إلى المدرسة القرآنية من 3 إلى 7 سنوات، ولكن وقتها احتاجه أبواه لانجاز بعض الأعمال في الحقل، يحررانه من الواجبات المدرسية.

2 — يسجل الطفل في هذه المرحلة بالمدرسة، هنا أيضا تتخذ مطالب والديه، حينما يحتاجان إليه، مكان الصدارة بَدَل الواجبات المدرسية، مما لايساعده أبداً على النجاح.

3 — في حوالي 14 أو 15 سنة من عمره، يطرد الطفل من المدرسة أو يغادرها بمحض إرادته، بعد أن يرسب عدة مرات ويانتظام في كل فصل، فيجد نفسه بدون شهادة ولا تكوين يؤهله للحصول على مهنة عصرية، سواء في ضيعات الدولة أو عند الخواص، ويرفض القيام بالأعمال الزراعية التقليدية في الملكية العائلية، حيث التقنية بدائية والعمل اليدوي وسخّ في نظره.

إن غضب العائلة فيما يخص الفشل المدرسي، يعززه غضبها تجاه البطالة ورفض ضيعات الدولة لتشغيل الفاشلين من الأطفال والمراهقين تشغيلاً منتظماً، مما يجعل الفلاح الغرباوي يعيش احباطات متنوعة من طرف المؤسسات العصرية التي تنظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة، بما في ذلك المدرسة ومصالح وزارة الفلاحة، ولا سيما ضيعات الدولة التي تجسّد الترف والرخاء :

« أنا (فلاح) ولدي كيمشي في الصبح للمدرسة في الشتا والغيص، ولد مدير المركز كيمشي في سيارة دافعة. أنا ولدي كيتدحى من المدرسة. أولاد مَالين المركز كينجحوا ويطلعوا للثانوي وكيخرجوا أطبة ومهندسين، أما ولدي ما كيلقاش خدمة مرسمة مع (سُوجيتا) حتى كعامل أو غير يشطب... ».

إنها الدولة وليس الشاب، هي المُعتبرة مسؤولة عن البطالة : الطفل غير مُلام أبداً، إنه يعتبر ضحية وهو بحاجة إلى مساندة الوالدين. وبدعم من والديه في كثير من الأحيان يتزوج الشاب العاطل مبكراً ويتحمّله والده رغم المصاعب المادية.

لقد التزمنا في هذا البحث، بإعطاء نظرة الفلاح إلى المجتمع، وكيف يعيشه، ولكننا سنفتح هنا قوسين للتعبير عن رأينا الشخصي حول ما يتعلق بالمراهق في دوار بكارا. قمنا ببحوث في مدن القصدير بضواحي الرباط وسلا حول مواقف العائلة إزاء المشاكل التي تتخبط فيها، ولا سيما الفشل المدرسي وبطالة المراهقين، ولم يسبق لنا أن عثرنا على عائلة راضية عن مراهقها وتتعاطف معهم إلى الحد الذي شاهدناه في بكارا. إن العائلات التي بحثناها وقابلناها من قبل، رغم عتابها للمدرسة وتحميلها فشل المراهق، تتخذ موقفا صارما إزاء هذا الأخير، حيث تُحذره ضد الكسل ولا تسمح له بالتنازل عن المطالبة بالعمل، حيث يصبح البحث عن شغل عملا يوميا بالنسبة له، كذلك تتخذ هذه العائلة موقفا صارما ضد زواج المراهق العاطل. أما في بكارا فقد شاهدنا العكس، حيث ينهك الآباء في الأعمال اليدوية التي يتطلبها العقل ولا يفرضونها على أبنائهم، الذين يرفضون بدورهم مزاوله هذه الأعمال، كما لمسنا ظاهرة نادرا ما توجد، وهي تشجيع الآباء لأبنائهم العاطلين على الزواج المبكر، وعلى التكاثر من الأطفال رغم فقرهم المتزايد. كيف يمكننا تحليل هذه الظاهرة؟ لماذا يتخذ الفلاح الغرابوي الفقير هذه المواقف التعاطفية المفرطة إزاء أبنائه العاطلين؟ هناك تأويلات وتخمينات شتى يمكننا أن نوردتها كرد على هذا السؤال في غياب بحث ميداني. لذا سنكتفي باقتراح تأويل ذاتي، ولكنه مبتني على ارتساماتنا وانطباعاتنا خلال الفترات التي قضيناها في دوار بكارا، ومضمونه أن موقف العائلة التعاطفي المفرط إزاء المراهق لا يفهم إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار مدى تغلغل الرأسمالية في المنطقة، وبالتالي مدى التطاحنات الطبقية، في منطقة تندق خيراتها في الوقت الذي تحرم فيه جل عائلاتها من قطف ثمار الرأسمالية والتكنولوجيا والعصرنة. إن هذه الحماية تجاه المراهقين العاطلين، الغير عادية في المجتمع المغربي، الذي يحتقر الكسل ويُشتمُّ العمل، لا تُفهم إلا في سياق الصراع الطبقي الحاد الملاحظ بالغرب، ويشجع الفلاحون أبناءهم العاطلين على الانجاب لممارسة الضغط على الدولة ودفعها لتوزيع الأراضي عليهم.

إنه مجرد تأويل ذاتي في انتظار بحث ميداني يركّز على هذه المسألة كإشكالية أساسية ويحاول تحليل أبعادها ومفاهيمها. وسأغلق القوسين هنا للرجوع الى موضوعنا وهو الخطأ اللامحي في دوار بكارا.

لقد رأينا إلى حد الآن أن الفلاح الغرابوي، يشعر بظلم اللامساواة ويهاجمها ويطالب بالعدالة الاجتماعية، فيما يخص توزيع الأراضي والاستفادة من المصالح العامة من مدرسة ومستشفى، إلا أن هذا الفلاح الذي يطالب بالمساواة في كل هذه الميادين، يرفضها فيما يخص العلاقات بين الجنسين، حيث يتشبث بالتقليد في هذا الميدان ويفرض أي تغيير يمس هذا الموضوع، فهو لا يشعر أبدا بالحاجة إلى التغيير في اللامساواة التي تنظم العلاقات بين الجنسين وأدوارهما داخل العائلة والدوار، فهذا الفلاح الذي يطالب بالعمل المأجور يرى أنه من الطبيعي أن تعمل زوجته أو ابنته معه بدون مُقابل، وهو الذي يطالب بالمساواة، يرى أنه من الطبيعي أن يتصرف في أجرة زوجته التي تحصل عليها مقابل العمل في ضيعات الدولة أو القطاع الخاص موسميا، هو الذي يطالب بتعليم الأبناء لا يرى جدوى في تعليم الفتيات. وبصفة عامة يمكننا القول أن هذا الإدراك للظلم الاجتماعي ولا مساواة الفرص، لا ينتج عنه التهجّم

على اللامساواة بين الجنسين، إلا لدى قلة من الرجال البارزين بالأخص في أوساط الأحيال الشابة، ثم إن هذه اللامساواة بين الجنسين تؤثر بقوة على ولوج الفتيات إلى المدرسة.

ج - اختلال المدرسة العصرية، وتأثيرها الحاسم على صورة المرأة ودورها في المجتمع :  
« شهادات لبنات الأغنياء، العمل غير الرسمي والبطالة والبقاء للأخريات ».

ينقل هذا العنوان الملاحظة التي يرددها تقني زراعي شاب، ملخصاً فيها بتركيز وضعية المرأة في العالم القروي. حسب رأيه فإن الأدوار الجديدة للمرأة : التعلّم وسياسة السيارات والعمل بالادارات العمومية، تعتبر نماذج مرجعية للجميع، فقراء وأغنياء، رجالاً ونساء. ولكن يظهر أن نماذج النساء هاته المندمجة في الاقتصاد العصري، تساهم في الواقع في الخطّ من قيمة الوضعية التقليدية للمرأة التي لا زالت مصير الأغلبية الساحقة. كان للمرأة القروية التقليدية نوع من الاحترام لذاتها ولدورها ومساهماتها داخل العائلة والقرية والاقتصاد العائلي الذي كانت تلعب داخله دوراً أساسياً كعامل يدوية، وكناسجة للملابس، كعنصر أساسي يسهر على تغذية المواشي ورعايتها، وأخيراً كعنصر حيوي فيما يخص صحة الأطفال والكهول وذلك لمعرفتها بالعشوب ودرابتها بالطب الشعبي والسحر الخ...، أما الآن فإنها مع تغلغل الرأسمالية في المنطقة تشهد تحطيماً لأدوارها التقليدية، وذلك من خلال تحطيم نظام الانتاج العائلي نفسه.

إن مردودية المرأة داخل الانتاج العائلي الحالي سحيقة، ولا يرجع لكونها تعمل أقل من قبل بل يرجع لإفلاس النظام العائلي للانتاج (Le mode de production domestique) الذي تعرفه بلدان العالم الثالث منذ انفتاحها على السوق الدولية. إن مردودية المرأة القروية في الحقل العائلي اضمحلت وشهدت تدهوراً عميقاً، لا لأن هذه المرأة لم تتركس حياتها لأعمال شاقة كما فعلت ذلك قروناً من قبل، ولكن لأن البقعة الأرضية التي تستغلها العائلة أصبحت تصغر يوماً بعد يوم، بسبب الحصار الذي تعيشه هذه العائلة وسط انتشار واتساع الوحدات الكبيرة للانتاج الرأسمالي، بما فيها وحدات القطاع الخاص والدولة. وأدى إفلاس النظام العائلي للانتاج بالمرأة القروية إلى الشعور بالعقم فيما يخص المساهمة في الانتاج، وذلك لأنها على عكس الرجل، لا زالت تعتبر المجال العائلي الضيق كمجال لحياتها، وهذه هي نقطة الانشقاق الأساسية في المصير الفلاحي حسب الجنس. إذا كان الرجل والمرأة يعيشان في القرية المغربية إحباطات عميقة، فإن هناك فرقاً شاسعاً في تجربتهما، لأن الرجل مزق الحدود العائلية لتجربته وطموحاته، بينما لا زالت المرأة سجيناً داخل تلك الحدود. فالرجل الغرابوي يطالب بمجالات أخرى كالمؤسسات التكوينية والعمل المأجور في ضيعات الدولة، ولكن في نفس الوقت يرى أن ليس للمرأة حق شرعي في هذه المجالات الجديدة، وترى نفسها هي الأخرى كعنصر لا شرعية له في المطالبة بتمزيق الحقل العائلي كحقل لاستثمار الجهود، والسعي إلى تحقيق الذات والترقية الاجتماعية. في الوقت الذي يدرك فيه الفلاح أن الحقل العائلي كمجال لتحقيق الذات واستثمار الجهود محكوم عليه بالعقم والفشل في إطار الرأسمالية وتغلغلها في أحشاء المجتمع الذي يعيش فيه.

إن العلاقة بين الجنسين تمثّل، داخل الحياة القروية بالدوار، أحد الأبعاد التي تشهد التغيّرات الأكثر عمقاً وفي نفس الوقت الأكثر تضارباً، إذا أخذنا بالاعتبار التفاوت والتناقضات بين ادراكات هاته التغيرات من طرف الرجال من جهة، والنساء من جهة ثانية. وبما لا جدال فيه أن أدوار الجنسين من الموضوعات المفتوحة باستمرار داخل العائلات القروية، كما تعكس ذلك المقابلات الجماعية التي أجريت مع الفلاحين، حيث النقاشات مثيرة، مما يبين أهمية وعمق التغيرات التي يعيشها المجتمع القروي على هذا المستوى.

وكما رأينا من قبل في جميع المشاكل المطروحة داخل العائلة القروية، هناك مستويان يجب العمل على التفرقة بينهما، وتحليل ما يجري داخل كل مستوى منهما على حدة، وهما مستوى التطلعات ومستوى السلوك، وذلك لأن التقسيم بين هذين المستويين يُبرز لنا الممارسات التطبيقية التي تتبلور على مستوى الممارسة لا على مستوى التطلعات، مثلاً العائلة القروية الفقيرة تطمح كالعائلة القروية الغنية إلى تعليم الإناث لكن أب العائلة الفقيرة يدفع بابنته إلى القيام بمهمة جلب الماء وجمع الحطب على مستوى الممارسة، ويجادل في حق ابنته في الذهاب إلى المدرسة التي يدفع ابنه إليها، رغم أفاق الفشل الذي يحتم على مصيره. إن الشابة الفلاحة تشعر بكونها محرومة من عالم المدرسة الذي يفتح أبوابه أمام أختها ولو لبضع سنوات:

فلاحة عمرها 17 سنة، تشتغل في ضيعات القطاع الخاص أو الدولة موسميًا، تعيش مع عائلتها الموسعة (الأب وأبناؤه وزوجاتهم وأبنائهم) التي تشمل 16 فردًا، يستغلون بقعة أرض لا تزيد على خمس هكتارات غير مسقية، كل البنات في عائلتها أميات :

سؤال : ما الذي كنت تقومين به قبل عملك كمأجورة بالضيعات ؟

جواب : كنت أشتغل لحساب العائلة. حين كنت طفلة، كنت أساعد والدتي بالمنزل، أرعى إخواني الصغار، وأعنيها في الأعباء اليومية. كنت أذهب لجلب الحطب والماء، أنظف فناء البيت والغرف، أساعد في إيقاد النار لطبخ الحيز. وبعد ذلك، حين كبرت أكثر، بدأت في رعي الحيوانات، أذهب بها وأعيدها، أحياناً أرهاها وحدي، وأحياناً أخرى أذهب برفقة أخي. حين تقدم عمري، في حوالي سنتي العاشرة، أخذت أعمل بالضيعات.

سؤال : لم يسبق لك أبداً أن دخلت المدرسة ؟ حتى المدرسة القرآنية ؟

جواب : نهائياً ! هنا لا نرسل البنات إلى المدرسة، إنهن يشتغلن، يساعدن أمهاتهن، يجلبن الماء والحطب، ويهتمن بالأطفال. كيف يمكن أن نبعث بنتاً إلى المدرسة ؟ لا يمكن للأُم أن تقوم بكل شيء، ومن يهتم بالحيوانات ؟ هن هم الأولاد ؟ إنهم في المدرسة. الأغنياء فقط هم الذين يبعثون بناتهم إلى المدرسة. أنا لم يسبق لي الدخول إلى المدرسة. إخواني نعم، ولكن أنا لا. إنهم لم ينجحوا في إتمام تدرّسهم، ولكنهم يعرفون القراءة والكتابة. أما أنا فلا أعرف شيئاً.

أما أب العائلة المسورة في دوار بكارا فيطمح إلى تعليم البنات ويمارسه، ويسخر الجهود والامكانيات لهذا الهدف. فيمالي مقتطفات من مقابلة مع فلاح متوسط في سن الثلاثين،

يستثمر 25 هكتار غير مسقية ورثها عن أبيه ويملك جرّاراً وشاحنة وسيارة ومحركاً لجلب الماء، له أربعة أطفال (2 ذكور و2 إناث) كلهم ممدرسون :

سؤال : ماذا تريد أن يصبح الأطفال في المستقبل ؟

جواب (الأب) : سيصبح الولد طبيباً، والبنت مدرّسة. هل تدرين أن المرأة تلعب الآن دوراً هاماً في حياة الزوج، يجب أن تساعدته، تصاحبه وتخرج معه أينما كان. أنا أريد أن تكون زوجتي في مظهر لائق، لابسة لثياب جيدة نظيفة، ويجب أن تكون على علم بما يجري، إنني أحكي لها كل شيء، ولا أتخذ قراراً هاماً بدون مشورتها.

سؤال : ما رأيك في أولئك الذين لا زالوا يزدون من عدد الأطفال بدون تحديد، أو مبادعة زمنية ؟

جواب : إنهم لا يفكرون : يجب أن يكون لدينا عدد الأطفال الذي في استطاعتنا تحمل مسؤولياتهم، لا يمكننا الاستهتار و« التفرّج » بدون نهاية. إننا نريد تربية وتعليم أطفالنا، بناتنا وأولادنا، وهذا يكلف غالياً.

سؤال : لماذا تريدون تربية وتعليم الفتيات ؟

جواب (الأم) : البنات بالأخص !

جواب (الأب) : يجب أن تتعلم الفتاة، بإمكانها أن تعمل وتساعد زوجها، وإذا لم تكن لديه إمكانيات كافية، يجب أن تساعد المرأة اقتصادياً.

من خلال هذه الاستشهادات يتضح لنا أن دور المرأة وتعليمها أو أميتها يلعب (وسيلعب في التسعينات) دوراً مركزياً في توطيد الفروق الطبقيّة وتكريسها. إن العائلات القروية بما فيها الرجال والنساء، ترى أن الأدوار التقليدية للجنس أضحت مُتجاوزة، وهي تعيش وتختير الأدوار الجديدة، فعلى النقيض من المرأة التقليدية التي لا تُتصوّر إلا بما لها من قدرة على الانجاب والاعتناء بزوجها، والتي تسعى ما أمكن للحصول على أكبر عدد من الأطفال بأي ثمن، فإن زوجة الفلاح الميسور تميل إلى انشغالات أخرى، يقسمها معها زوجها، وتحدد حياتها : اهتمامات الصحة، التسلية الخ.

ويجب أن نتذكر أن من أهم المكتسبات العصرية التي هزت بنية العائلة التقليدية، هي بروز الشائبة (Le couple) كعنصر مستقل في أسلوب عيشه وقراراته، فالتبعية للزوج في العائلة الأبوية كانت دائماً وقبل كل شيء تبعية تجاه والديه، وفوق ذلك تجاه القبيلة أو الجماعة الذكورية، حيث الزوجة الشابة كانت مُلزمة بأن تكون مهمشة. لذا كان من أحد مكتسبات الحداثة المعيشة والمدافع عنها بشدة من طرف النساء، كيفما كان اتنازهن الطبقي، هو مطلب إقامة مستقلة عن الوالدين والاعتراض على سلطة الحماة. والحال أن إثبات نظام الشائبة يعاشر كانتصار للمرأة الشابة ضد والدي الزوج، حيث أصبحت هذه المرأة داخل العائلة البورجوازية الصغيرة مشاركة لزوجها في التسيير والتقرير، بما في ذلك المجال الاقتصادي.

إن موقف الرجل إزاء الزوجة، ولا سيما إزاء طاقتها الاقتصادية، ومشاركتها في القرار، أو

إبعادها عنه، أصبح عنصراً أساسياً في تشكيل الطبقات الاجتماعية في مجتمعنا المغربي. ويمكن تقسيم المواقف إلى قسمين :

- 1 — موقف العائلة المسورة التي تستثمر في طاقة المرأة الاقتصادية ولا سيما تكوينها وتشغيلها وشاركها في القرارات، فتصبح المرأة في هذه العائلة عنصراً يساهم في ميزانية العائلة من خلال الأجر وكذلك في تسيير الشؤون المنزلية وتعليم الأطفال.
- 2 — بينما نجد أن العائلة الفقيرة تساهم في تفكير نفسها بتجميد طاقات نساؤها وإهمال تعليم بناتها.

ويبين البحث الوطني الذي أجري من طرف معهد الإحصاء سنة 1974 أهمية الطبقة الاجتماعية في علاقتها مع المسؤولية الاقتصادية للمرأة. وحسب هذا البحث فإن 41 % من أرباب العائلات المنتمة إلى الشرائح العليا يوافقون على عمل المرأة خارج المنزل، في حين أن نسبة 25 % فقط المنتمة إلى الطبقات الوسطى هي التي تستحسن هذا الأمر. أما فيما يتعلق بالفتيات المعوزة فإنها تعارضه بأغلبية 67 %، وأقلية من 14 % هي التي تقبله<sup>(8)</sup>.

ويندرج دوار بكاراة في هذا الاتجاه الوطني العام، بعكسه، فنجد نفس الجمود والعداء لدى أرباب الأسر الفقيرة تجاه عمل المرأة وتعلّمها. ذلك أن العمل المأجور في التصور الشعبي، يؤدي إلى تعاطي البغاء. إن هذه الانشغالات لا تطرح إلا بالنسبة للأب المعوز العاجز عن أن يوفر لبناته الحد الأدنى من الرغيد الحيوي لتجنيب « المغامرة ». وذلك لأن خطر البغاء بالنسبة للشابة يرتفع مع ازدياد فقرها وعدم استقرار حياتها التكوينية والمهنية والزوجية.

أبرزت المقابلات نقطة أخرى جد غريبة، وهي أن الآباء الفقراء يقدمون المحافظة على بكاراة الطفلة كحاجز أمام تدرسها، بينما لا يذكرها الآباء الميسورون أبداً. فما معنى هذا الاختلاف فيما يخص موقف الآباء إزاء البكاراة ؟ يمكننا (في غياب بحث ميداني حول الموضوع) تقديم عدة تخمينات لتفسير هذا الموقف :

التخمين الأول : ان الأب الميسور يوفر لابنته وسيلة نقل منتظمة، وبالتالي فهو يضبط تحركاتها ويقلل من الأخطار، التي تتعرض الطفلة الفقيرة، التي تجد نفسها مرغمة على اجتياز عدة كيلومترات للذهاب إلى المدرسة.

التخمين الثاني : إن هذا الطابو يتدخل كحاجز أمام تدرس الفتيات، ولا يتم التدرع به إلا في حالة العائلات الفقيرة، حيث لم تقع — وبدون استثناء — أية محاولة لتدرس الإناث من الأطفال..

ونرى من خلال هذا، كيف أن التبررات ذات الطابع التقليدي تُفَعِّع العوامل ذات الطابع الاقتصادي المحض، وكيف أنه يتم التدرع « بالتقليد » قصد تبرير عدم تدرس الفتيات. زد على ذلك مشكل بُعد المدرسة، الذي لا وجود له على صعيد دوار بكاراة، لأنها توجد وسطه.

كخاتمة لموضوعنا هذا، أي تطور العلاقات بين الجنسين، يجب توضيح الفروق حسب الأجيال، ذلك أن الشباب المدرس في ثانوية سيدي سليمان (وهي الثانوية التي تجمع

الناجحين من الابتدائي في المنطقة) يُعبر على مستوى الكلام على الأقل، عن مواقف أكثر تقدماً من جيل الآباء. ونسجل أن الدينامية تصل في هذا المجال إلى حدّ انحاء الفوارق الطبقيّة على صعيد الأجيال الجديدة، فعالية المراهقين كيفما كان مستواهم الاجتماعي - الاقتصادي، يعتبرون التغيرات في وضع المرأة كشيء إيجابي.

ولقياس أهمية السنّ في ادراك موقف ودور المرأة، وبالتالي العلاقات داخل العائلة، طلبنا من 115 شاباً وشابة من ثانوية سيدي سليمان، الإجابة على الأسئلة التالية: « ما هي العائلة المثالية في نظرك، التقليدية أم العصرية؟ هل يجب أن تعمل المرأة أم لا؟ هل المرأة مساوية للرجل أم يجب أن تخضع له؟ » فكانت الأجابة كاليلي:

عائلة تقليدية

عائلة عصرية

امرأة لا تشتغل خارج البيت		امرأة عاملة خارج البيت		امرأة لا تشتغل خارج البيت		امرأة عاملة خارج البيت	
المرأة يجب أن تخضع للرجل	المرأة مساوية للرجل	المرأة يجب أن تخضع للرجل	المرأة مساوية للرجل	المرأة يجب أن تخضع للرجل	المرأة مساوية للرجل	المرأة يجب أن تخضع للرجل	المرأة مساوية للرجل
2	6	0	5	20	15	5	17
2	2	0	3	1	8	0	21
4	8	0	8	21	23	5	38
12		8		44		43	
(18%) 20				(81%) 77			

ملحوظة: 107 جواب من مجموع 115 مستجوب ومستجوبة

يظهر أن الشباب يميلون إلى العائلة العصرية كنموذج وأن 50% من المبحوثين كيفما كان الجنس يحبون عمل المرأة خارج المنزل. وهكذا إذا فصلنا النتائج نلاحظ أن 38% من الرجال الذين يريدون عائلة عصرية لا يتمنون أن تشتغل نساءهم خارج المنزل، وأن 43% يريدون أن تكون المرأة خاضعة لزوجها.

وعلى عكس ذلك فإن 30% من النساء اللاتي اخترن العائلة العصرية، يعتقدن أن المرأة يجب ألا تعمل خارج البيت، ولكن ذلك لا يمنعهن من المطالبة بالمساواة في المعاملة، حيث 96.6% من النساء يعتقدن أن المرأة يجب أن تكون مساوية للرجل مهما كان موقفها من

العمل. وبشكل عام، من الواضح أن فكرة المساواة بين الزوج والزوجة داخل العائلة، وهي فكرة معاكسة لروح وجوهر وقواعد العائلة الإسلامية، قد اكتسحت أوساط الشباب : 61,4 % من الرجال و 91,8 % من النساء، يعتبرون المساواة بين الزوجين كشيء مثالي، كيفما كان رأيهم حول عمل المرأة.

#### 4 — القضية الثالثة : الكهربية كوسيلة لتكوين وتعليم الشباب والأطفال من خلال التلفزة

تُلمس الكهرباء من طرف الجميع، كخاتم سحري يخل عدداً لا نهائياً من المشاكل، فالفلاحون كيفما كانت طبقتهم الاجتماعية، يعانون الحرمان من الكهرباء كظلم، كَبُتِر شديد الأثم لا يرون له تهرباً، وتُبرز المقابلات بكيفية خاصة هذه النقطة، كما تُبرز التعطش الكبير للإعلام والتعليم : « فيما يتعلق بالإضاءة، فإننا نعيش في فصل الشتاء داخل منازلنا كالحيتوانات، حيث يسود الظلام طيلة اليوم، ولا يمكننا الهروب من هذا الظلام بسبب المطر والوحل، ولو كان هناك نبتة تصاح بالمسجد، لَكُنَّا نذهب للاتقاء فيه وتغيير الجو. هل تدرون لماذا لا ينجح أطفالنا في المدرسة ؟ إنه زيادة على انعدام وسائل النقل، فهناك انعدام الكهرباء كسبب ثانٍ، ولا يتوفرون عليها سواء بالمنزل أو المدرسة، ففي فصل الشتاء يبدأ سقوط الظلام منذ الساعة الرابعة. أما بالمدينة فيتابع الأطفال دروسهم في المدرسة إلى الساعة السادسة وبإمكانهم الاستمرار في إنجاز واجباتهم المدرسية بالبيت. إننا الآن نساهم جميعاً لشراء شموع للمدرسة. ولكن بإمكانكم تصور ما يمكن أن نشاهده على ضوء أربع شمعات، في قاعة تضم أربعين تلميذاً، إنما الحرمان الأكبر يظل قائماً تجاه التلفزة. لو كنا على الأقل لا ندري بوجودها ولكن عدة أفراد بالدوار يملكونها، إنهم يُفلسون لشراء هذا الجهاز، ويفلسون أكثر لافتناء البضائيات ولكن التلفزة ذات أهمية قصوى إلى درجة أن الضعفاء أمثالي يفكرون بدورهم في شرائها.

سؤال : ماذا لتلفزة والراديو هذه الأهمية الكبيرة ؟

جواب : إنه شيء حيوي، بالنسبة لأناس ليست لهم أية وسيلة للاطلاع، فالتلفزة تعلمنا، وتعلم النساء والأطفال، نشاهد عبرها كيف يعيش الآخرون. فهناك أطباء يشرحون الأمراض، وهناك محامون يشرحون القوانين. بها نعرف ما يجري بالبلايا، هناك وزراء يوضحون مشاكل الأرض، والأصلاحي الزراعي، وبناء السدود، والمدارس والطرق. إنها أمر حيوي، أحسن معه أنني أصبح إنساناً، وأنتي معني بشؤون البلاد، وأشعر بواسطتها أنني غير معزول وأحيا في الدنيا، وأنتي بدوري أجمع المعارف الضرورية التي أوجدتها العلماء. لقد تحدثت عن نفسي ونسيت الأطفال، والأمر بالنسبة لهم أهم، حيث المدرسة لا تسير هنا كما يرجح منها، فعلى الأقل يطلع الطفل عبر التلفزة إلى الإعلام والاطلاع، حتى لا ينمو منقطعاً عن العالم مثل والده. لا شيء بيدنا يمكن أن تقدمه لأطفالنا، نحن أميون ليس بمستطاعتنا أن نعلمهم شيئاً، ولكن يمكننا على الأقل أن نشترى لهم التلفزة، على الأقل التلفزة... !، إذا لم يكن بمقدورنا إطلاعهم فلنضمن لهم ذلك من خلال التلفزة. لذلك فإن الفلاحين، حتى المدقعين منهم، يختلسون ثمن البطارية

من عيشهم اليومي. لم يعد اليوم كافيا للانسان أكل الخبز، بل يجب أن يلتهم التلفزة، الاعلام، التعليم. يجب أن يعرف كل ما يعرفه سكان المدن وإلا فإن هؤلاء سيستمتعون في استغلالنا ومعاملتنا مثل البهائم.

« يمكننا تأدية مصاريف الكهرباء مثل الجميع، إننا نؤدي الضرائب عن كل شيء، السيارة، الدراجة وأعواد الثقاب... لماذا إذن لا يزودونا بالكهرباء؟ بينا العديدون الذين يضيعون الكثير من المال لشراء البطارية للمذياع، والآن نشترها لأجل التلفاز وذلك أغلى ثمنا. سيكون الأمر أقل تكليفا لو كانت الكهرباء لدينا. إننا يمكننا بالكهرباء القيام بعدة أمور... سيدة عمرها 28 سنة، لها أربعة أطفال، زوجها حلاق (يكثري أربع هكتارات كل سنة لأنه لا يملك أرضا).

من خلال هذه الاستشهادات نلاحظ أن العائلة الفلاحية تنظر إلى وسائل الإعلام كعنصر مركزي لسياسة التعليم والتكوين. فبالنسبة لها، ليست التلفزة مجرد أداة للتسلية، بل هي وسيلة لاقتناء المعلومات والتفتح على العالم، بما فيه النخبة المسيرة للبلاد وقرارات التخطيط وأسرار التكنولوجيا. بالتالي تعاش التلفزة من طرف الفلاح كمدرسة في متناوله، تُدفعُ معلومات في منزله، حيث يشاركه في الاستفادة منها الأبناء والزوجة. ويجب هنا أن نقارن موقف العائلة الفلاحية ازاء التلفزة، وهو موقف شبه تقديسي لها، بموقف العائلات في المدينة، الذي هو موقف نقدي صرف. فهذه الأخيرة تنقبِل برامج التلفزة بتشكك متزايد حيث تطعن في نوعية البرامج ولغتها (الفرنسية مثلا) ونوعيتها ومضامينها...، بينما لا نجد هذا التشكك عند عائلات بكارا. فهل معنى ذلك أن الفلاح الغريابوي لا يتوفر على وعي نقدي إزاء وسائل الاعلام؟ يجب تفسير موقف هذا الفلاح في سياق العزلة الثقافية والسياسية التي يعيشها، حيث ليس هناك مقاهي أو أندية أو حتى مساجد للتجمع وتبادل الآراء.

كيفما كان الحال فإن استشهادات ومواقف العائلة الفلاحية تبرهن على تعطش كبير من لدنها إلى الانفتاح على العالم العصري وأفكاره وتياراته وقراراته ومعلوماته، وهذا التفتح غير ممكن في نظرها، في غياب التجهيز الكهربائي وتوابعه داخل المنازل.

خاتمة عامة للخطاب الفلّاحي :

إن الفكرة المحورية في الخطاب الفلّاحي، التي تبرز من خلال معالجة الفلاح لقضايا الصحة والمدرسة والتشغيل ووسائل الإعلام، هي أن الحلّ شاملّ وجذري، وليس جزئيا وسطحيا. بالنسبة له تتطلب الحلول تغييراً جذريا وبنويا للبيئة القروية. فالصحة بالنسبة له تتطلب زيادة على ارتفاع عدد المستوصفات ومراكز التطبيب، تصفية الماء وتوفير منازل وأرقة مجهزة ونظيفة. والتعليم يتطلب زيادة على بناء وتجهيز الوحدات المدرسية، تنظيم شبكة نقل تُسهّل ذهاب التلاميذ من منازلهم إلى المدارس والثانويات، أو توفير داخليات لمن تبعد سكناه عن المدرسة، إن تعميم التعليم والتكوين يتطلب، في نظر العائلة الفلاحية، كهرة المجال القروي، حتى يتوفر لها وقت للتسلية في المساء، ومشاهدة التلفزة أو الاستماع إلى المذياع... الخ.

كخلاصة لهذا القسم الأول من البحث يمكننا أن نردد مع المرحوم السلاوي أن « العروبية مطورين » كما يردد ذلك الآباء في بكارة : فهم يرفضون التنمية كما هي الآن ويعطون تفاصيل التنمية المناسبة لتطلعاتهم، ولا ينقصهم لتحقيق آمانيهم إلا مخطط يحترم آراءهم ومطالبهم ويبدل الجهود لتحقيق تصوراتهم للتنمية الناجعة.

## ﴿دراسة حالة دوار سيدي عدي (آيت واحي) بمنطقة أزرو﴾

تمهيد : العوامل التي حددت اختيار جماعة أزرو :

تحدد العوامل التي جعلتنا نختار جماعة أزرو بالأطلس المتوسط فيما يلي :

— خصوصية المسلكيات الديموغرافية : توجد لدى سكان الأطلس المتوسط الفلاحين الرعاة مسلكيات ديموغرافية متميزة، حيث تُصنّف ناحية أزرو من بين « المناطق المعتدلة الولادات »، وهي نفس حالة سكان الأطلس المتوسط عموما وملوية العليا. فالعائلات ضعيفة الاتساع — 3،4 أفراد في المعدل — بالمقارنة مع باقي مناطق المغرب، إلا أن عدم استقرار العائلة أكثر ارتفاعاً (88 % من النساء المتراوحة أعمارهن بين 20 و29 سنة متزوجات، أما الباقيات فهن غالباً مطلقات)<sup>(1)</sup>.

— مميزات لغوية وثقافية نوعية : أبانت دراسة الحالة عن تنوع بالغ الأهمية للمميزات اللغوية والسوسيوثقافية.

— وضعية النساء : تعرضت النساء داخل العائلة الزراعية — الرعية لأضهاد متميز، ولم تضطلع النساء في مختلف الفئات الاجتماعية بنفس الدور في التغييرات السوسيو — اقتصادية التي عرفتها المنطقة.

— منطقة للهجرة : هذه الجماعة قائمة في منطقة ضعيفة الكثافة، معروفة تقليديا بترحالها بالمهاجرين.

— اقتصاد زراعي — رعوي مأزوم : نمو الرأسمالية لازال في بداياته.

لقد تطلب الأمر عدة بحوث ميدانية مطولة لاستخلاص المعطيات المتعلقة ببلدة سيدي عدي التي تمت بها أغلب البحوث. وقد اتسع البحث ليشمل القرى الصغيرة، بضواحي سيدي عدي، والمأجورين والعمال الزراعيين الذين تتوزع مساكنهم هنا وهناك.

يوجد دوار سيدي عدي بسهل تيكريكرا، على بعد 12 كلم من أزرو، على طريق خنيفرة، ويقدر عدد سكانه بـ 2000 نسمة (500 منزل) في ضواحي قبيلة آيت واحي، يتكون هؤلاء السكان من عمال زراعيين وفلاحين فقراء ومتوسطين، ورعاة وحدادين ونجارين وتجار وباعة خضر. وقد قدرت البحوث بأن أقل من 20 % من السكان الذين عمرهم أكثر

من 21 سنة لهم نشاط ما، أما ما تبقى فيتكون من عاطلين لأن عملهم لا تتجاوز مدته بضعة شهور خلال السنة، وفيما يتعلق بالتقديرات حول النساء والأطفال فهي دون الواقع.

ومن الملاحظ أن البيغاء واسع الانتشار بسيدي عدي، حيث عرف خلال العشر سنين الأخيرة انتشاراً سريعاً، وغالبية المومسات من أصل فقير، فمن بين 75 مومس نجد 60 من وسط مدقع، وكل يوم تدفع البلترة والاضطهاد العائلي بالمزيد من الضحايا إلى صفوف البيغاء.

انطلاقاً من هذا التمهيد، يمكننا أن نحدد بشكل أفضل نتائج البحوث التي تعبر عن رؤية مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية المندمجة والمساهمة في حركة التطور الواسعة. وعلى عكس المنهج الذي أتبعه منمنطقة الغرب فإن التحليل لم يتم انطلاقاً من فئات المخاطبين (المستجوبين) ولم يجمع الخطاب الفلاحي في جانب وخطاب الأضر في جانب آخر، بل قُسم التحليل على موضوعات أساسية كالآتي :

— التغييرات التي حدثت داخل الأسرة نتيجة عملية الاستقرار.

— تطور التنشئة الاجتماعية : تقادم التمييز الثقافي والهجرة.

— الحاجيات الجديدة المرتبطة بالصحة وانعدام مساندة بنيت المصالح الصحية لها.

لهذه الموضوعات انعكاسات متميزة الأهمية على المواقف تجاه مشاكل السكان.

أولاً: معطيات عامة :

أ — الاستراتيجية الاستعمارية : تحطيم أسس الاقتصاد الزراعي — الرعوي.

أقام برابرة صنهجة منذ عدة قرون بالمناطق الجبلية للمغرب، مع « المسارات » الموسمية للانتجاع (أماكن الكلال التي ترتادها المواشي)، وتبين الشواهد التاريخية الأولى، أن هذه المسارات مثبتة بالاطلس المتوسط وناحية أزرو في القرن الخامس عشر، مع ما نتج عن تيارات الهجرة التي انطلقت من واحات الجنوب العالية الكثافة. وقد عرفت ناحية أزرو مرحلة طويلة من الاضطرابات الممتدة غالباً بسبب رفض السكان لدفع الضرائب المفروضة عليهم من قبل السلطة المركزية. وفي القرن التاسع عشر، ازدادت خطورة هذه الاضطرابات بسبب تدخل القوى الغربية، وسيستغل المستعمر الفرنسي النزاعات المحلية، لتوطيد دعائم سيطرته، محاولاً استغلال مسألة الخصوصية البربرية ضد السلطة المركزية. وقد اعتمدت الاستراتيجية العسكرية للحماية الفرنسية — في هذه المنطقة التي استمرت فيها مقاومة السكان إلى سنة 1931 — على هدم وتفكيك البنيات الاقتصادية والاجتماعية، فحصلت بذلك اضطرابات عميقة في أسلوب حياة السكان الزراعي — الرعوي حيث أدى استيلاء المعمرين الفرنسيين على أجود أراضي السهول بالساييس إلى طرد المنتجعات من هذه الأراضي وحصرها في مجال لن يزداد إلا تقلصاً فيما بعد.

ب — اتساع العلاقات الرأسمالية وأزمة نمط الحياة الزراعي — الرعوي.

أدت القيود التي يفرضها نمو العلاقات الرأسمالية على الاقتصاد الزراعي — الرعوي إلى إعطاء الأسبقية للفلاحة المتمثلة بالخصوص في زراعة الحبوب. فالنظام الاقتصادي الزراعي —

الرعوي القديم يرتكز على تقنيات بدائية، وتمثل الطاقة البشرية فيه عنصراً أساسياً للانتاج. أما توزيع الأراضي ففتحكم فيه الجماعة التي تسهر على تسليم القطع للأسر المنتمة للمجموعة القبلية ولا يُحوّل لتلك الأسر إلا حق الانتفاع. والعائلة الموسعة هي الوحدّة الأساسية للانتاج، فالنظام الزراعي - الرعوي كان إلى حدود القرن 19 ينظم النشاط الاقتصادي، أساساً من أجل تلبية حاجيات الجماعة العائلية، وسيضعف قيام نظام الحماية التمايزات الاجتماعية القائمة، وسينال من العلاقات التضامنية القبلية والأبوية القديمة. وإذا كانت قاعدة التنظيم الاجتماعي القديم هي المجموعة العائلية مستعينة بتضامات قبلية وأبوية، فإنها كانت تحتوي في أصلها على بذور تمايزات اجتماعية كبيرة الأهمية، وإذا كان إشباع حاجيات المجموعة العائلية يشكّل الهدف الأول للانتاج، فإن السكان الرّزاع - الرعاة، لم يعيشوا أبداً في اكتفاء اقتصادي كامل.

في نهاية القرن 19، كان عدد كبير من مرّبي الماشية قد أفقروا وتمّ تشغيلهم كخماسين أو رعاة لدى الكسّابين الذين كانت بحوزتهم قطعان من الغنم تعدّ بالآلاف، وساعد اقتصاد السوق على نزع ملكيات عدد كبير من الفلاحين لصالح ملاك الأراضي الكبار. وبذلك نشأت صيرورة بلترة السكّان الرّزاع - الرعاة، حيث عرفت المنطقة في بضعة عقود تحولات سوسيو - اقتصادية بالغة الأهمية وذات طابع نهائي، فدخل اقتصاد السوق وتقلصّ مساحات الرعي المتوفرة والتزايد الديموغرافي.. أدى إلى مضاعفة تجزؤ الملكيات وتخفيض مساحات المُستثمرات العائلية، كما أدى بالخصوص إلى تفاقم انعدام التوازن الذي خلقه الاستعمار بين الأنشطة الرعوية والزراعية. وقضت هذه الأزمة التي أصابت تربية المواشي على نمط حياة المنتجين. فنمو البلدات القروية، التي ستصبح نقط تجمّع للفئات المبلترة (سيدي عدي، آيت يحيى وعلا، بنصميم) مرتبط بأزمة أمخاط الانتاج الماقبل - رأسمالية هذه، وازداد تفاقم التفاوتات بين مناطق الجبل والسهل على حساب المناطق الجبلية التي أفرغت من السكان، إذ نجد مثلاً أن أصل 20 % من سكان مركز آرزو من الناحية.

ازداد اتساع العلاقات الرأسمالية في بداية فترة الاستقلال، وكان هذا التوسع محسوساً أكثر في السنوات الأخيرة، فنقلصت الملكية الصغيرة بشكل عام في ناحية آرزو : في سنة 1962 كانت الملكيات التي مساحتها أقل من خمس هكتارات تُمثّل 70 % من مجموع الملكيات بناحية سيدي عدي (آيت واحي)، ولكنها في سنة 1976 لم تعد تمثل سوى 68 %، وتقوّت على عكس ذلك الملكية الكبيرة والمتوسطة، كانت الملكيات التي تتجاوز 20 هكتاراً لا تمثل سنة 1962 سوى 3،8 %، وأصبحت في سنة 1976 تشكّل 5 % من مجموع الملكيات. كما نمت الزراعة على حساب تربية المواشي التي شهدت جموداً، ففي جماعة عين اللوح، نمت الماشية ب 14،1 % بين 1930 و1976، وفي جماعة إيركلاون لا يكاد نمو هذا القطاع يفوق ذلك إلا بقليل : 15 %، في نفس الفترة التي ارتفع فيها عدد سكان الجماعتين ب 63 %<sup>(2)</sup>.

## ثانياً : عملية الاستقرار وتطور العائلة الزراعية — الرعوية :

1. — النساء يشكّلن الجزء الأساسي من قوة العمل، لكن يحرمن من ملكية وسائل الانتاج.

وإذا كان العمل النسوي يشكّل أساس الاقتصاد الرعوي، فإن المرأة تظل مع ذلك محجورة، ولا تصل الى الحالة التي تسمح لها بالحصول على مرتبة مهمة داخل العائلة الموسّعة، إلا عندما تحتاز مرحلة الخصب، ولكن هذا لا يعني دوماً، داخل البيوت الميسورة، وضعا أحسن، حيث إن قدوم زوجة جديدة يظل خطراً قائماً. فالمرأة ليست فقط معرّضة لأن تجد نفسها مُعَوّضةً بزوجة جديدة تحمل محلها، بل كذلك للسقوط فعلياً في النسيان. فالعرف يسمح للزوج « بترك » (هجر) زوجته، فتعود بذلك إلى بيت والديها أو تظل بيّتها. ومنذ ذلك الحين تصبح، على حدّ تعبير إحدى الفلاحات، مثل « قبر عتيق منسي »، ويأخذ الزوج بالظاهر بعدم الاهتمام بوجودها، وهو غير ملزم بكسوتها، كما أنه ينقطع عن محادثتها.

إن تعدد الزوجات الشائع الانتشار، كان نتيجة طبيعية لتقسيم العمل بين الجنسين. وإذا لم تكن أية دراسة ديموغرافية تسمح بالتعرف بكيفية دقيقة، حسب المناطق، على المعدل المتوسط للحياة بين الجنسين، فإنه من البديهي أن كل رجل « يستعمل » أكثر من زوجة خلال حياته. إن تقسيم العمل هذا وما يستلزمه من النساء هو ما يدفع ببعضهن إلى المطالبة بالزوجة الثانية لتخفيف عبء الأعمال الشاقة الملقاة على عاتقهن. وإذا كانت المرأة تأخذ النصيب الأكبر في إدارة البيت، فإن العائلة العصبية Agnatic والأبوية Patriarcale، التي تضحي المرأة من أجلها كلياً، تمنعها من البلوغ إلى تملك وسائل الانتاج. وكون المرأة هنا مُبعّدة عن ولوج المسار المشترك (أي حرمانها من التمتع بكامل ما تمارسه الجماعة وتنظّم به حياتها) فإنها كذلك محرومة من امتلاك الأرض التي بحوزة العائلة، بالإضافة إلى أن الصناعة التقليدية المنزلية كانت موضوعاً على كاهلها، ولا حق لها في امتلاك ثمره عملها داخل العائلة، وليس بمقدورها أن تكونَ وُفراً إلا في حالة تمكّنها من « احتلاس » بعض المال من ميزانية بيتها الخاص. وإذا كان دور النساء على مستوى الانتاج أساسياً، فقد كان هنّ تقريباً نفس النظام الأساسي لليد العاملة التي كانت تحملها العائلة لانجاز بعض المهام، الرعاة، الخماسين الخ، إن العائلة الرعوية قائمة على أساس المحافظة على الملكية الشاسعة (غير المقسّمة) لأدوات الانتاج، وكان هذا يقع على حساب النساء أساساً، فإبعادهن عن الاستفادة من ثمار عملهن، ثم مستويات الوصاية ومختلف التراتبات اللائي يخضعن لها، سيُدرجهن كعنصر جوهري في دينامية صيرورات تغير العائلة الزراعية — الرعوية الكبيرة.

لقد حصلت النساء على الحق في ملكية الأرض من الناحية المبدئية، لكن هذا الحق لازال بعيداً عن أن يكون شيئاً واقعياً، فوسيلة الاحتيال عليه متوفرة عند أولئك الذين يريدون المحافظة على ميراث العائلة المشترك، فلا زلنا نجد مراراً ربّ عائلة (بالمعنى الأبوي المشار إليه) يأتي إلى محكمة أزرو لتسجيل قراره بحرمان بناته من الإرث لصالح أولاده وأحفاده وبما أن « الشرع » لا يسمح للواهب بأن يتصرف في أكثر من ثلث التركة، فإن هذا الأخير يلتجئ، لأجل حماية

البنيات الأبوية، إلى سلاح قوي يتجلى في البيع الصوري. إن الحقي في الإرث سيعمل من ناحية أخرى على إبراز تناقضات العائلة الموسعة، التي تتبلور بالأخص في الصراعات القائمة بين الأجيال، فالنساء الشابات أصبحن أكثر فأكثر يرفضن العمل لحساب هذه العائلة الكبيرة، ويرفضن كذلك كل أشكال الوصاية الممارسة عليهن من طرف جميع ذكور هذه العائلة<sup>(1)</sup>.

## 2 — تطلعات ومواقف جديدة... مطالب قديمة :

هناك توترات وصراعات تُمرِّق العائلات مع بروز الشخصية الحفوية للمرأة. فقد أصبحت مشروعية تلك الوصايات متنازعاً بصدها بشدة من طرف الكنة (زوجة الإبن)، ولكن مسألة العمل لفائدة العائلة الكبيرة بالأخص هي التي تلاقى اعتراضاً كبيراً من طرف هؤلاء النسوة الشابات، اللاتي يرغبن في توظيف جهودهن، في تربية أبنائهن وتعليمهم : « أريد أن أشتغل من أجل أولادي » « إذا جهدت، أريد أن يستفيد أبنائي، لا أريد أن أظل في كل حين معرضة لإهانة حماتي، مالذي أجنه من هذا ؟ » إن دور النساء سيكون هاما في تدعيم وتسريع صيرورة عملية الاستقرار — لأن النظام الزراعي — الرعوي كان يجبرهن على القيام بأعمال مرهقة وعلى مجابهة قساوة المناخ بسبب الإقامة تحت الخيام — كما هو الحال في صيرورة تشتيت الميراث العائلي المشترك. لقد تغيرت الحياة اليومية للفلاحات مع عملية الاستقرار هاته، فبعض مهام تحويل المنتجات الزراعية، مثل طحن الحبوب، لم تعد واجبة عليهن منذ قرابة العشر سنين. ولكنهن لا يشتغلن أقل بالنسبة للاعتناء بالماشية والبيت والأطفال، أما لدى العائلات الميسورة فتشكّل تربية الأطفال وتدرسهن وسيلة في يد النساء، للافلات من سخرات الحياة القروية القاسية. إن المرأة في هذا الوسط تصبو إلى رفاهة البورجوازية المدنية، وتؤثّر تربية الأطفال بالمقارنة مع وضعيتها كسيدة بيت. أما في أوساط العمال الزراعيين أو الفلاحين المتوسطين فإن النساء الشابات يرفضن بتاتا تلك السخرات القديمة، ولا يطلبن فقط بوضع مرتفع المستوى والوصول إلى الرفاهية المادية، بل إذا لم يكن هن أنفسهن عاملات، فإنهن لا يرغبن في ممارسة حياة ربة البيت.

إن الشروط التاريخية، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي حكمت البنيات العائلية في المجتمع الزراعي — الرعوي قد حددت مطالب النساء تجاه مسألة الخصوبة والانجاب. ويظهر أن التحكم في الولادات، كان يشكل في هذه المنطقة — وبصفة أكثر حدة مما يمكن العثور عليه في مناطق أخرى — إحدى الوسائل التي كانت تمتلكها المرأة للدفاع عن نفسها ضد الوضعية الفظيعة التي كانت تعاني منها داخل العائلة الزراعية — الرعوية، هكذا يمكننا تفهيم الانتشار السريع لوسائل منع الحمل مع أن استعمالها لا يطبق دوماً بشكل سليم.

## 3 — البترة، المهر، الزواج، الزواج المبكر، تكرار زواج الشيوخ وانعدام الاستقرار العائلي :

تبيّن على ضوء البحث الميداني، بأنه في أوساط العائلات ذات الملكيات الصغيرة المبترة، يتم زواج الأولاد في سن أصغر بالنسبة للعائلات المأجورة (أي التي يقوم أفرادها بالعمل

المأجور)، حيث يظهر أن العمل المأجور يؤخر سن الزواج، زيادة على ذلك، فإن العامل إذا أراد إيجاد شغل قار، يصبح عليه أن يكف عن الهجرة أثناء موسم الحصاد، ذلك أن مستثمري الضيعات الزراعية يرفضون في أغلب الأحيان تشغيل العامل الذي يتغيب خلال فترة الحصاد. أما في أوساط عائلات مرتبي الماشية الصغار أو الفلاحين، فإن المال المؤفر من عمل الحصاد يسمح بالزيادة في الميزانية العائلية، كما يفيد في تأدية مصاريف الزواج. يعرف المهر حالياً تغيراً في دلالة، ففي فترة ما قبل الاستعمار وأثناءه، كان المهر يُجسب من طرف العائلة التي تعطي ابنتها، مما كان يمثّل بالنسبة إليها تعويضاً عن ضياع امرأة. لكن التقاليد الجارية داخل العائلات البورجوازية أخذت تنتشر أكثر فأكثر بالبادية، فهذه الأخيرة تتباهى وتتنافس في تخصيص ضعف قيمة المهر المدفوع من الرجل، على الأقل، لاعداد جهاز لابنتها. أما جهاز الفلاحة الفقيرة فيظل رغم ذلك متواضعاً جداً، ولكن مسألة ضرورة تجهيز الأب لابنته أصبح عنصراً جديداً يغير العلاقات بينهما. إن ما يتقبله الأب من ناحية أخرى، كنتضحية من أجل ابنته هو وثيق الصلة بنوع الرباط الذي يرغب في إقامته من خلال الزواج، والزواج المرغوب فيه بالنسبة للفتاة يتجلى في ذلك الذي يتم مع رجل يقطن في المدينة.

إن الصراع من أجل الحفاظ على ملكية وسائل الانتاج — وملكية الأرض على وجه الخصوص — يفسد أكثر فأكثر هذه العلاقات، فالعديد من الآباء يحاولون حرمان بناتهم من الارث بواسطة طرق غير مباشرة: وضع وصايا لصالح الأبناء والأحفاد، البيع الصوري الخ... احساس بالمرارة، غيظ، توترات وصراعات، انحطاط صورة الكهول في أعين الشباب، ذلك ما تُبرزه أغلب المقابلات، فقد أصبحت الحياة العائلية تبدو كما لو أنها منحورة بسبب التوترات والتآكل اليومي، ومن خلال ما يجري داخل العائلة يشعر الكثير من الشباب القروي بالتناقضات الاجتماعية. وإذا كانت علاقات ديمقراطية شيئاً ما قد أخذت تنشأ داخل العائلات، فإنها لا زالت جنينية، ولا زالت كل شوائب نظامي الاقطاع والأبوية عالقة بها. يُقدّم الزواج المبكر بالنسبة للعائلات الفلاحية كمخرج للفتيات اللاتي لم يتمكن من الحصول على أي تعليم، واللاتي لا يمكنهن نشدان أي تكوين مهني، وهكذا يجري كذلك زواج الفتيات مع الشيوخ. فشيوع زواج الشيوخ هو إحدى ويلات العائلة الرعوية المؤسسة على تعدد الزوجات. أحد الوجهاء تزوج في الثمانين من عمره بفتاة عمرها 16 سنة. وهذه الحالة بعيدة عن أن تكون استثنائية، فعالمنا ما يقوم أبناء رب العائلة (الأبوية) الأولون بتطبيقه من إحدى زوجاته أو بإحضار أخرى إلى البيت. إن أولاد الجيل الأول داخل هذه « العائلة ذات الطبقات » يديرون المرعة، ويتحكمون في إرادة والدهم كما يشاؤون. ويظهر أن الافتراقات بين الأرواح ليست ناتجة دوماً عن إرادة الزوج الخاصة بل ناتجة كذلك عن وسطه، وحسب رأي بعض موظفي العدل، فإن عدد تسجيلات الزواج يساوي تقريبا عدد تسجيلات الطلاق، ومن الأكيد أن هذا الرأي مبالغ فيه، ولكن بما أن عدداً هاماً من حالات الافتراق غير مسجلة، فهذا يبين إلى أي حد وصل انعدام استقرار بنية الزواج. وبالعكس، هناك بعض النساء يحاولن كل مرة تحسبن وضعيتهن بمحاولة أخذ مكانة داخل عائلة أكثر يُسرّاً»<sup>(4)</sup>

#### 4 — البغاء : أحد عناصر البنيات القروية :

إن بلبرة شرائح اجتماعية عريضة يقلل من حظوظ استقرار العائلة، فبالنسبة لتلك الشرائح لم يعد هناك أمل معقود على الزواج، لأن المؤسسة العائلية لم يعد بإمكانها أن تضمن للمرأة دورها التقليدي. ومن الآن فصاعداً، إذا كان على المرأة أن تواجه انعدام الاستقرار العائلي، فإن الزواج لم يعد بالنسبة إليها سوى محاولة لاستئثار رمز للاندماج الاجتماعي داخل العائلة الأبوية، في وقت أصبح هذا الاندماج يشكّل في الواقع معضلة، بل يستحيل أمام بعض النساء فيفتح أمامهن طريق البغاء أكثر فأكثر. وإن ما يدفع المرأة إلى البغاء ليس الاضطهاد الأبوي داخل العائلة وحده، فالعمل المأجور لا يجعل قوة عملها سلعة فقط، ولكنه يجبرها على بيع جسدها مقابل أجر يساوي الحد الأدنى للمأجور في القطاع الفلاحي، وهنا نجد أحد مظاهر انهيار أسس العائلة القديمة، منذ بداية هذا القرن.

#### ثالثاً : التنشئة الاجتماعية، تقاوم التمييز الثقافي والهجرة :

إن تطور التنشئة الاجتماعية، عبر مختلف المؤسسات وخاصة المدرسة، يُترجم في العمق نموّ التناقضات الاجتماعية ويفتح مجال الهجرة، ولقد جمع البحث هنا أيضاً، النقاط التالية، المتميزة بالدلالة :

#### I — رفض المدرسة الاستعمارية كأداة للاضطهاد :

إن وجود علاقات منقطعة مع السلطة المركزية، لم يكن أبداً يجعل العناصر القائدة والمنظمة للحياة الاجتماعية بحاجة لأن تكون « مثقفة »، فالفتيان كانوا يُدرَّبون منذ طفولتهم المبكرة على حراسة القطعان، بعد ذلك كانوا يقومون بمهام الحرث والحصاد، ثم عليهم أن يمتزوا ليصبحوا فرساناً مهرة، أما الفتيات فكُنَّ يخرسن الماشية بمحاذاة الخيمة، ويتدرَّبن على أشغال البيت... ولم يكن لابن الراعي في الماضي نفس ظروف الحياة التي كانت لابن الوجه، وإذا كان هذا الأخير يتمتع بتغذية جيدة ورعاية أحسن، فإن عالمه الثقافي مهما كان مطبوعاً بالترابيات الاجتماعية، فقد كان هو نفس عالم ابن الراعي. إلا أن استيلاء الهيمنة الاستعمارية لمجموعة من الوجهاء، ستضع حداً لهذه الوضعية، خالقة بذلك عملية ستفاقم التمييز الثقافي بين أولئك الذين تمكنوا من الولوج إلى المدرسة وبين الذين ظلوا أميين.

وكان ينظر إلى المدرسة الاستعمارية كأداة للهيمنة، فعالمها ما كان سكان الأطلس يرفضونها: حسب ذكريات الشيوخ الكبار، فإن بعض العائلات كانت تلجأ إلى جيبل معقدة لتجنّب أولادها من الدخول إلى هذه المدرسة مثلما فعل أحد الوجهاء الذي ادّعى أن ابنه أصمٌّ أبكمين. وتمت نظام الحماية الاستعمارية كان التعليم مجزأ ف « الثانوية البربرية » مثلاً كانت مخصصة لأبناء الأعيان، كما كان تعليم أحادي الجنس، لا مجال فيه لتعليم الفتيات، ولم يكن التعليم خلال هذه المرحلة يهدف نهائياً، إلى تحسين وضعية المرأة، ولا إلى تحرير المغاربة، كما يظهر ذلك من خلال دورية وزارية في سنوات 1930<sup>(5)</sup>. ويتأثر من الحركة الوطنية نشأت مدرسة مختلطة بأرزو في الخمسينيات، أقفلت من طرف السلطات الاستعمارية، واستقبلت « مدرسة للبنات المسلمات » فتيات هذه البلدة القروية، وكُنَّ يوجهن حسب الأصل.

الاجتماعي إلى شُعب الأعمال اليدوية : النسيج، الطرز... وظلت المدرسة القائمة حالياً خاضعة إلى حد ما لهذه النماذج الأصلية، مع أنها فتحت أبوابها أمام عدد أكبر من الفتيات الفقيرات.

## 2 - وجهة نظر المدرسين، أزمة بنيات السلطة : الأب / المرثي :

من خلال بعض مقاطع المقابلات، الكيرة الدلالة، ستوضح هذه النقطة : « من الأفضل ألا يظل المدرس زمناً طويلاً بالقرية، حين يصبح مقرّباً من التلاميذ، يعتبرونه كفرد من أهل القرية، وبالتالي لا يمكنهم تعلّم شيء وحين يكون المدرس جيداً، يكون متشدداً، كما أن الأطفال يدرسون جيداً لأنهم يخشونه ». « حين يلتقي تلميذ بالثانوي مع أستاذه في المقهى، يلعبان الورق ويدخانان معاً، فإنه لا يمكن أن تبقى للأستاذ أي سلطة عليه، يجب على هذا الأخير أن يجتنب الحديث في بعض المواضيع مع التلميذ، لأن التلميذ لن يعود لاحترامه أبداً. لقد انعدمت الأخلاق وانعدمت القدرة على التحكم » « حين يأتي الأستاذ إلى هذه القرية، فإنه يُساعد من طرف الجميع. ولكن أولئك الذين لهم إمكانية إرسال أبنائهم إلى المدينة هم الذين يحصلون على نتيجة ما ».

بالنسبة لظروف التعليم، فإنها موضع عدة انتقادات متكاملة : « الطرق غير مساهرة، حيث من الصعب على التلميذ أن يفهموا بشكل صحيح ما نعلّمهم، فالعلم المدرسي بعيد جداً عن الوسط الذي ينمو فيه الطفل. أغلبية الأطفال في هذه المدارس لم يسبق لهم زيارة المدينة أبداً، لكن الكتب المدرسية لا تتحدث لهم إلا عنها. إننا في عالم والتلاميذ في عالم آخر، ليست هناك أية وسيلة لتلقيهم دروساً تقرّبهم مما يعيشونه أو تجعلهم يتواصلون مع العالم الذي تتحدث لهم عنه المدرسة ». « إن طرق تعليمنا بائية. لا ندرّ ما الذي تقوم به، الأطفال في واد ونحن في واد آخر. فالطفل لم يسبق له أن وضع قدمه في حافلة للمسافرين، ونحن لا نتحدث في الدروس إلا عن الطائرات والقطارات والمطارات. إن الطفل غريب تماماً عن اهتمامات المدرسة. يجب أن ترى الدروس الدينية، كم هي مصطنعة ومجردة بالنسبة لعقل الطفل. ومع ذلك ندهش لكون الأطفال ينفرون أكثر فأكثر من المدرسة ! لا شيء يجذبهم إليها، لا شيء في مستوى سنهم. إننا نفرض عليهم قطعة كبيرة جداً، لكننا لا نقدم لهم أية قاعدة يمكن أن تساعدهم. الأطفال ناقبو الذكاء لكن ما نلقّهم بعيد عنهم جداً. لقد بدأ أبناء الفقراء يقولون انهم لن يتمكنوا من شيء. ولا داعي لتضييع الوقت، في حين أن أبناء الأغنياء يتمكنون من تدبّر الأمر لأن الوسط يشجعهم ». « أبناء الفلاحين الفقراء لا يتعلمون، فهم يتخبطون في ظروف حياتية صعبة : في بداية السنة يكونون 50، وفي وسطها ينخفض عددهم إلى 30 تلميذاً بل وأقل. في حالة الأب الفقير، يدخل الطفل إلى المدرسة سنتين أو ثلاثاً، وبعد ذلك يأخذه أبوه لكي يساعده أو ليصبح راعياً. في حين يتابع أبناء الأغنياء، هؤلاء هم الذين يدرسون، ولهذا السبب فإن المدرسة بالبادية خديعة كبرى. في المدارس البعيدة الأمر أعوص، حيث يقطع الأطفال ثلاثة كيلومترات أو أربعة للذهاب إلى المدرسة، في فصل الشتاء، تحت المطر لا لباس جيد يقبهم ولا تغذية جيدة تساعدهم، وغالباً

ما يكون عليهم أن يعملوا معهم بعض الأكل، حيث أن وجبة المطعم المدرسي رديئة للغاية، لا يستطيعون أحيانا تناوله». إن أبناء البورجوازية الصغيرة القروية لا يتمكنون من مجابهة مصاعب المدينة، وبالأخص نتيجة ظروف سكناتهم غير القارة والصعبة التي تعترض كثيرا حظوظهم المدرسية.

### 3 — تفاهم التمييز الثقافي على حساب أبناء الفلاحين الفقراء — عامل الجنس :

هذا العجز لدى الفئات المبلترة من الفلاحين، عن الوصول إلى المدرسة، كثيرا ما يفجر لدى الآباء الفاقدين لكل شيء، بعض العنف تجاه أبنائهم الذين يهربون من المدرسة، أو الذين يحصلون على نتائج دراسية سيئة. ويحكى تلميذ بالثانوي مايلي « جاءت امرأة من معارفنا لزيارتي صعبة طفلها، وطلبت منه أن يحدثني عن نتائجه في الامتحان، فقال لي بأن درجته في الترتيب كانت 43، وسألته إن كانت النتيجة جيدة، وحين أجبتها بالنفي، ارتمت عليه بالضرب المبرح ».

وإذا كانت النساء لم تتحررن كليا من السخرات القديمة، فإن هذه الأخيرة قد أضحت أقل إكراها، ابتداء من اللحظة التي سهلت فيها بعض أدوات التجهيز عبء الأشغال المنزلية، فظهر بذلك عند الأمهات اتجاه لاستئثار طاقتهن لأجل أطفالهن. وكونهن ضحايا للعائلة الأبوية، فانهم يحاولون الانعتاق من وضعيتهن بهذا التوظيف لجهودهن في تربية الأطفال. ويؤثر البقاء كرادع للتطلعات نحو التغيير، خاصة فيما يتعلق بتكوين وتعليم الفتاة. كما تشكل البنات الصغيرات، بين 8 و12 سنة، يداً عاملة رخيصة في زراعة الخضر والمغارس، فهن يعملن بسرعة كبيرة، ويتكيفن مع مهامهن. فابتداء من شهر مايو يُشاهدن محشورات في الشاحنات، ذاهبات إلى إحدى المزارع أو عائدات منها في المساء. وبصورة عامة فإن بنات العائلات المسورة بالأخص، هن اللاتي يرين أبواب المدرسة تفتح أمامهن ومن أجلهن.

### رابعاً : الحاجيات الجديدة فيما يتعلق بالصحة والتربية الجنسية :

إن تحليلاً سطحياً يمكن أن يسمح بالاعتقاد بنوع من القدرية تجاه مشاكل الصحة، وبمواقف كثيرة التشكك تجاه الطب العصري، ولكن إذا تجاوزنا هذه الانطباعات الأولية، سنتيقن بأن الاهتمامات فيما يتعلق بالصحة تطرح دوماً بكيفية جد ملحّة. لقد عبّر المستعملون للطب والعاملون به عن وجهات نظرهم التي تضمنها البحث على الشكل التالي :

1 — تغير المواقف بخصوص الممارسات التقليدية، صحة الأم، التخطيط العائلي والتربية الجنسية.

تغير الموقف جذرياً خلال السنوات الخمس وعشرين الأخيرة. بخصوص الطب العصري، فالمستوصف، المستشفى، التلقيح، أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تطلعات العائلات إلى الحياة الكريمة، وبالفعل فإن الشعور بالحاجيات الصحية أصبح أكثر حدّة من طرف النساء بالخصوص. بالنسبة للفلاحات الشابات اللاتي يعتبرن الولادة كعبء ثقيل، لا سيما وأن ظروف الحياة مضيئة، ويفتح الطب العصري باب الأمل فيما يتعلق بوسائل منع الحمل. أما

زوجات العمال الزراعيين اللاتي هن أكثر من 35 سنة فلا يعاولن استعمال الوسائل الحديثة لمنع الحمل إلا بعدما تنجن 5 أو 6 أطفال. عكس النساء اللاتي هن أقل من 30 سنة، فهن يجربن وسائل عصرية عديدة لمنع الحمل بدون استعمال الوسائل التقليدية.

وبسبب انعدام تعميم ملامم هذه الوسائل، واعتباراً لتباطؤ الاجراءات في المستوصفات، وبعد المسافة، وقلة الوقت والمال، فإن الخدمات الصحية بعيدة عن تلبية طلبات التخطيط العائلي، وكثيراً ما تعود النساء، نتيجة لذلك إلى الوسائل التقليدية. أما الأمراض الزهرية، فليست هناك وسيلة للتعرف على مداها وسعة انتشارها، غير أن تأثيرها على الحالة الديموغرافية قد وقع تسجيله من طرف بعض الباحثين<sup>(6)</sup>. وتجدر الإشارة إلى أنه غالباً ما تؤدي بعض الأدوية التقليدية والجهل بالنساء إلى العقم. وفيما يتعلق بمحاولات الإجهاض فإنها كثيرة حتى بالنسبة للمتزوجات، وذلك بابتلاع النباتات العطرية (العشوب)، أو إدخال مواد كثيرة التنوع في الجهاز التناسلي، تكون لها انعكاسات مأساوية على صحة المرأة.

إن توفير تربية جنسية أفضل للنساء الشابات، عبر مراكز تعليم وتربية الشباب، ومراكز محاربة الأمية، والمستوصفات أو المراكز الجماعية المتعددة المهام، وكذلك القيام بهذا إزاء السكان المندرسين في باب التربية الصحية بتلقينهم تربية جنسية مدمجة في دروس البيولوجيا أو العلوم، يمكن أن يسمح بالمساهمة في حل مختلف المشاكل، كما أن موضوعات مثل علم الصحة، الأمراض الزهرية وانعكاساتها على حياة الزوجين وعلى الخصوبة والوراثة، البغاء وبعده العائلي، الاجتماعي والثقافي، التعقيم الخ... يمكن ادخالها في البرامج أو الأنشطة.

## 2 — بنيات الخدمات الطبية ونواقصها:

يُعتبر عن وجهة نظر العاملين الطبيين، حول تنظيم الخدمات الصحية، بطريقة متقاربة: إنهم يرون لنقص الوسائل المادية، والاختبرات والتجهيزات (سيارات، بنزين) الخ... التي تعترض كل محاولة للتعميم الطبي، ولا تسمح بالوصول إلى جماعات السكان المعوزين ومخلائهم. وهؤلاء بدورهم يجدون صعوبات كبيرة تعترض وصولهم إلى المستوصفات أو المراكز الطبية (رداءة الجو وحالة الطرق، مواسم الزراعات، والعمل المتواصل بالحقول). إن تنظيم مشاريع للتربية الصحية، خصوصاً بالنسبة للأمهات، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الظروف والصعوبات، ويبحث في عين المكان عن وسائل تجاورها.

ساهم في ترجمة هذه الدراسة: عدنان الجزولي

ملحق:

قضية الأرض من خلال حياة شاب فروي في السادسة والعشرين من عمره، اسمه كريم.

كريم. فلاح شاب، عمره 26 سنة  
قضى ثمان سنوات بالمدرسة

يعمل بضبعة في بكاره.  
يعيش بدجينا، على بعد بضعة كيلومترات

س : ما هي مهنة والدك ؟

ج : فلاح، ثلاث هكتارات ونصف

س : كيف حصل عليها ؟

ج : في إطار الإصلاح الزراعي، أعطتها له الدولة سنة 1950، يزرع فيها القمح، والذرة، والفول الخ...

س : هل كانت هناك نساء أخريات غير والدتك ؟

ج : لا، لم يتزوج بنساء أخريات، لقد ولدت له أربع بنات وثلاثة أولاد، وفقدت طفلين صغيرين. كنا تسعة ولكن سبعة هم الذين عاشوا، أنا الثاني من بينهم، وباستثناء البنت الكبيرة التي تسكن بادن حميد، مازلتنا كلنا نسكن مجتمعين بهذا الدوار، ثم أخت أخرى تسكن وحدها مع زوجها قربنا في الدوار. نحن الباقون نعيش في نفس الدار، أنا وإخوتي الآخرين المتزوجين مع أبنائنا، وأختي المطلقة وأبنائها، وأبي وأمي وأخي الصغير بوعرة.

س : تعيشون كلكم في نفس المنزل ؟

« العائلة الموسعة

ج : نعم، زوجتي غير راضية عن ذلك، كان بوها أن تعيش وحدها مع أبنائها، زوجة أخي كذلك غير راضية..

س : ولماذا تمكثون جميعا مع بعضكم البعض ؟

ج : ليست لدينا القدرة على تحمل عبء، وبناء دار، وضمان القوت اليومي. لا أحد منا يمارس عملا عصريا ومنظما يمكنه من الانفصال عن العائلة. مرارا تقع الشجارات، ولكننا نتحمل ونشد أيدينا مع بعضنا، إننا مرغمون، كلنا نأتي بما نرضه للأب الذي يقرر كل شيء، هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تساعدنا على العيش. لا أحد منا ارتقى أو نجح. أنا الوحيد الذي ذهب إلى المدرسة، أما الآخرون من إخوتي فلم يصلوا إليها نهائيا.

س : لماذا ؟

ج : لا أدري، حتى أنا الذي مكثت ثماني سنوات بالمدرسة، ماذا استفدت ؟ لازلت على ما كنت عليه. لم يكن بالسهل الذهاب إلى المدرسة، لقد كانت تبعد بخمس كيلومترات. كنا نغادر دجينا على السادسة صباحا حاملين معنا بعض الشاي والخبز، نتناولوه في الغداء بساحة المدرسة، كان ذلك صعبا وشاقا. بعد ثماني سنوات غادرت المدرسة وأنا في مستوى المتوسط الأول، مللت من كثرة الرسوب فغادرتها، زيادة على أن أبي كان قد قرر تزويجي.

« الزواج المبكر للابن

س : لماذا قرر تزويجك في ذلك السن المبكر، كم كان عمرك بالضبط، آنذاك ؟

ج : 17 أو 18 سنة، قرر تزويجي لكي أتمكن من طلب قطعة من الأرض الجماعية. كانت الدولة آنذاك توزع أجزاء من الأرض التي تملكها الجماعة، وكان من الضروري أن أكون متزوجا لكي يكون لي حق فيها، وذلك ما فعله أبي. كل الشبان المتزوجين كان لهم الحق في الأرض مهما كان سنهم، وهكذا حصلت على هكتارين وقررت مغادرة المدرسة. وآلآن تستغل العائلة أرض أبي وقطعتي. إننا كثيرون، نكون عائلة كبيرة، وكل ما نحصل عليه من أرض وأجرة تعطيه للاب، إذا لم تفعل ذلك فليس بمقدورنا أن نعيش.

س : كم أنتم في المنزل ؟

ج : هناك أخي وزوجته وابناه، وزوجتي وأطفالنا الثلاثة وأنا، كذلك هناك أختي المطلقة وابنها وبوعرة أخونا انصغير (نسي اختبه الغير متزوجين).

س : كم من حجرة بمنزلكم ؟

ج : أربعة

س : كيف تقسمونها بينكم ؟

ج : أنا أسكن في حجرة، وأخي في أخرى، جدتي تسكن في ثالثة صحبة أختي وابنها، وأبي يسكن الحجرة الرابعة.

س : ما زالت جدتكم على قيد الحياة ؟

ج : نعم، وهي كبيرة السن، في الواقع هي التي تسير الأمور.

س : هل يذهب أطفالكم إلى المدرسة ؟

ج : لا، ليس بعد. نتمنى أن نتمكن في السنة القادمة من تسجيل الذين بلغوا السابعة. سي طرح ذلك بعض المشاكل، إذ أنهم سيضطرون للمشي يوميا على الأقدام، ذهاباً وإياباً لقطع الخمس كيلومترات التي تفصلنا عن المدرسة كما فعلت أنا : وسيتبون بالرسوب ومغادرة الدراسة كما وقع لي، إذا لم تشيد مدرسة بالقرية، تصوروا أن كل من كانوا معي في المدرسة غادروها قبل قسم الشهادة الابتدائية. نفس الشيء سيتكرر بالنسبة لأبنائنا، إلا إذا شيدت مدرسة بالقرية وتم ضمان النقل إلى المدرسة. ولكنه غير وارد أن تتحسن هذه الظروف. نفس المشكل بالنسبة للمستشفى، إنه بعيد جداً مما يجعلنا نحن وأبنائنا لا نذهب إليه أبداً. يجب الانتظار زهاء يوم بكامله إيجاد وسيلة نقل، هذا إذا كنت بالطبع في إمكانك أداء ثمنها، الشيء الذي لا يحدث إلا قليلاً. إذن كما هو الحال بالنسبة للمدرسة، فأبنائي سوف لن يروا المستشفى. كما لو كان الزمان لا يتحرك.

### مركز الاستئثار كرمز للتسمية المنفتحة

ولكن هناك فرق، إذ بينما وُلدت أنا خلال أيام الاستعمار، فإن أبنائي قد ولدوا في عهد الاستقلال. وهناك هذا المركز الذي كلف بناؤه الملايير. كان من الأحسن أن تشيد لنا مدرسة، مستشفى، وربما قاعة سينمائية ومكان للاجتماع فيما بيننا. كان من المفروض أن أجد عملاً بهذا المركز. إنني أنفق القراءة والكتابة والحساب، كما أن مستطاعي سياقة الحمار. نحن كثيرون في هذا الدوار، لا أحد منا يعمل بالمركز. إذ أن هذا الأخير يجلب كل عماله من سيدي قاسم وسيدي سليمان وتطوان، من كل مكان إلا من هذه الناحية. ليس لنا مستقبل حتى هنا. إنني مجبر رغم ثماني سنوات بالمدرسة أن أقوم بعمل لا يتطلب أي تكوين، عمل بدون ضمان للمستقبل وبدون أي حظ في الأرزاء والتطور.

س : وما هو العمل الذي تقوم به ؟

ج : فيما عدا حرق المقطع الأرضية التي نملكها، فإن كلاً منا يحاول إيجاد عمل مأجور في الضيعات الأخرى. وهذا ما أقوم به طوال السنة. إننا نعمل ما في مستطاعتنا، ولكن الأجر لا يتحسن بيننا الأثمنان لا تكف عن الارتفاع. والأدهى من ذلك هو أننا لا ندرى ما يأتي به الغد، فإذا مرضت قضي عليك ويجب أن تنتظر عودة صحتك، من جديد بدون تعويض أو ضمان للمستقبل.

### الفيضانات والفقر وضرورة المحافظة على العائلة الموسعة ومضاعفة أفرادها.

من هنا تأتي ضرورة العائلة الكبيرة، على الأقل إذا مرض، ففي مستطاع الآخر أن يكفل معيشة الآخرين. فمردود الأرض قليل وغير ثابت : هذه السنة مثلاً أغرق الفيضان قطعة الأرض التي يملكها أبي، فأتلقت محصولها. آنذاك لا يبقى إلا العمل بضيعات الآخرين. الأجر جامد والعمل غير دائم، يجب التقييب عليه باستمرار وتتبع أخبار أماكنه. هنا في دُجينا المواصلات صعبة، ويجب علينا الانتقال إلى مكان العمل بعيداً. نحن مرغمين على المكوث مجتمعين رغم المشاكل التي تطرح، ورغم كل الشجارات. إن عائلة صغيرة لا يمكنها العيش ومجابهة هذه الظروف الصعبة. يجب أن تكون كثاراً لكي تتمكن من العيش.

س : كم من طفل تريد أن يكون لك ؟

ج : مرحباً بكل طفل يوئد. بدون مستشفى حظوظهم في الحياة ضعيفة. لو كان لأبي ابن واحد فقط لما استطاع أن يدير أمر ويواجه حاجيات العائلة، بيننا الآن، وثلاثة أبناء، فإن أبي متأكد من أن تكاليف جهودنا يضمن لنا الحد الأدنى من العيش والمحافظة على البقاء.

- 1) نشرت نتائج هذا البحث في مطبوع لمنظمة اليونسكو تحت عنوان :  
«Etudes de cas socio-culturels pour l'éducation en matière de population au Maroc au Perou, au Rwanda et en Republique Unie de Tanzanie» - UNESCO 1981 - ED. 81WS-59
  - 2) أية قيادة وتو سطحية لتأرج المغرب تعطي التقى، طرأ وضحة عن الطيعة التسمية لعلاقة بين السلطة المركزية وتواضون في القبائل أو المدن. وعلى سبيل المثال فإن العكرة بحرية التي تبلور من قرائت كتاب « الاستفسا » لأحمد دول الغرب الأقصى للإستاذ جعفر الناصري وهو مرجع كلاسيكي سراد. هو العلف الذي يطبع ويقيد العلاقة بين « المخزن » والسكان. وهناك أمثال شعبية كثيرة تبرز لنا هذه الظاهرة ومنها : — المخزن جابر ولا رغبة فاسدة.  
— جوج الله يتحيت ميمو : البحر والمخزن  
كما أن هناك أقوالا كثيرة حول القاضي كممثل للمخزن، تفسد نظرة سلبية إليه. منها :  
— إذا كان القاضي خصيمتك رقاد رسوم
  - 3) السكان القرويون. حسب الإحصاء العام لسنة 1971. منطقة الشمال — الغربي. مديرية الأحصاء 1973 الصفحة 27
  - 4) Monographie succincte de la subdivision agricole de sidi slimane. Office régional de Mise en valeur Agricole du Gharb. service de la production Agricole. subdivision de Sidi Slimane 31/10/78. p.5.
  - 5) Ministère de l'intérieur : Monographie. Cercle de Souk EL Arbaa du Gharb, mars 1977.
  - 6) ORMVAG : Subdivision de sidi slimane : Monographie de la Subdivision 31-10-1978.
  - 7) Triki Hamid et Rosenberg B : Famines et Epidemies au Maroc au XVI et XVII siècle. Hespéris. Vol XIV et XV. 1974.
  - 8) Radi A.: Adaptation de la famille marocaine au changement social danale Maroc urbain. (BESM) 135 p.22  
- Voir aussi. El Belghiti M.: les relations féminines et le statut de la femme dans la famille rurale dans trois village de la tossaout, BESM 114. juillet-septembre 1969.  
- Baron A.M. : «la famille Proletarienne» in Regards sur le Protectorat Marocain. Faits et Idées, 1954, n° 20  
- El Belghiti M.: la ségrégation des garçons et des filles à la compagne. BESM 120 - 121
- 
- 1) Nain D.: La population rurale du Maroc. P.U.F. Paris 1970.
  - 2) Source impôt agricole : cité par El Belghiti. A : Urbanisation et domination du monde rural : le cas d'Azrou. Thèse de Doctorat de 3<sup>e</sup> cycle en géographie, Université Toulouse-le-Mirail, 1978.
  - 3) M. El Belghiti, les femmes dans le Maroc independant. thèse de 3<sup>e</sup> cycle en Sociologie.
  - 4) نفس المرجع السابق.
  - 5) F. Taillard : Le nationalisme Marocain